مفهوم الفكر المادي

بقلم

أ.د. أحمد عبد الحميد عمودة الجمل

أستاذ العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين

إن القضية الدينية كانت ولا زالت وستظل أهم ما يشغل بال المفكرين بعامة ، والدينيين منهم بخاصة ، وأتباع الأديان السماوية بصفة أخص ومفكرى الإسلام على وجه الخصوص .

ذلك أن هذه القضية بما تقدمه من تصورات حـــول الوجود والمبدأ والمصير والغاية وبما تمثله من ظاهرة واكبت حياة الإنسان، قد اجتذبت إليها طلاب الحقيقة من جهة ، وأعداء الحقيقة أيضا من جهة أخرى .

ومن ثم أخذت أبرز ملامحها من واقع الجدل الدائر بـــين طلاب الحقيقة والحق ، هذا الجدل الذى ما فتر يوما إلا لينشط ، وما ضعف إلا ليقوى .

ولقد تمحور هذا الجدل فى جانب كبير منه ، حول ظاهرة الأديان السماوية ،التى تطرح قضية الغيب والوحى والألوهية والنبوة بشكل أساسى ومباشر بصفة عامة ، وبما يطرحه بعضها[1] من ضرورة سياسة الدنيا بمنهج الدين ، بصفة خاصه ،

ولقد مثل الفكر المادى والمادية أبرز أطراف الجدل حول القضية الدينية ، فى أساسها وفى ما تطرحه من تصورات، وفيما تؤكده من سياسة الدنيا بالدين .

وقدر لهذا الفكر أن يتبنى الموقف المناقض تماما ، الذى يعلن إبتداء رفضه لأركان هذه القضية وكافة مضامينها الإيمانية ،العلمية والعملية معا .

---

(١) هو الإسلام

وقنع بذلك ، واتخذ منه سبيلا وحجة لتصعيد العداء للإيمان الدينى ، والفكر الدينى والنظم الدينية ، والترويج وعرض وتسويق قضية الإلحاد المادى ، أو المادية الإلحادية .

وهذا المنزع جرى بأن يضع الفكر المادى خارج دائرة الحقيقة ، والمفكرين الماديين داخل دائرة العداء للحقيقة .

ولا نظن أن دينا أو ديانة يصيبه من رذاذ العداء المادى ، مثل ما يصيب الإسلام ، لأن الإسلام فوق أنه يقدم حقائق إيمانية عن الغيب والوجود والألوهية ، ويتقدم بنظام كامل من القيم والأخلاق ، فهو مع ذلك كله يطرح فسقا فريدا فى سياسة الدنيا وتوجيه الحيـــاه ، فى كل وجهاتها وتوجهاتها .

وذلك ما يمثل امطاردة ، بل طردا للفكر البشرى الوضعى من منظومة القيادة والتوجيه ولما كانت المادية فى حقيقة أمرها تطارد الدين فى كل ميدان ، وعلى كل صعيد فإن الإسلام يتعرض لأكبر قدر من مطاردة المادية .

ولقد قويت شوكة المادية قوة ملحوظة فى فترات تاريخية ، لعل من أبرزها الفترة الحديثة والمعاصرة .

تلك الفترة الـــتى شهدت انتعاشا المادية والفكر المعبر عنها ، على الصعيدين النظرى الفلسفى ، والعلمى التطبيقى ، حيث توفر لها من مذاهب واتجاهات الفكر الحديث جملة غير قليلة ارتكزت على مبادىء مادية ، واتجهت إلى العمل لحساب المادية ، ثم توفر لها ما لم يشهده التاريخ من قبل ، وهو التطبيق الفعلى فى واقع حياة الإنسانية المعاصرة ، بحيث أضحت المادية الإلحادية ، نظام دولة وقانون مجتمع وشعار حياة ، يبرز ذلك التجربة الشيوعية الماركسية ، التى جعلت من المادية والإلحـــاد أساس الفكر ، ومنطق السياسة ومحور حركة الإنسان والمجتمع .

لقد تشكلت المادية والإلحاد دولة ، أخذت تزاحم لبسط الهيمنة السياسية ومعها الهيمنة الثقافية ، التى لا غاية لها إلا تثبيت أقدام الإلحاد المادى ، ونشره وتسويقه وتلك ظاهرة فريدة وغريبة .

ثم قدر لأنماط أخرى من المادية الحديثة أن تكون أساس فلسفة الحياة والحكم فى مجتمعات أخرى ، كالبرجماتية التى هى أساس فلسفة الحياة فى أمريكا ، وكالوجودية التى هى أساس فلسفة الحياة لدى اتباعها .

واقتحمت المادية معاقل العلم الحديث ، فأوقعته فى المادية زمنا ، واستفادت من نتائجه زمنا ، فكان أن بدا العلم ماديا وبدت المادية علمية ، ولا يخفى ما فى ذلك من خطر وخطورة .

وليس لذلك من دلالة ، إلا أن المادية والفكر الذى يمثلها ويعبر عنها ، هما أعدى أعداء قضية الدين والإيمان الدينى والفكر الدينى والمنهج الدينى .

ولأن ذلك كذلك ، فإن منهج الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة ، من حيث إنه فى إحدى غاياته يتوفر على حراسة الدين ، وصون الإيمان ، فإنه هنا يلزم بضرورة الإلتفات بقوة نحو ما تقدمه المادية والفكر المادى من مزاعم وشبهات حول قضية الدين والايمان الدينى بعامة ، وما يتعلق منها بالإسلام بخاصة .

وإذا كان منطق الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة يتأسس ضمن ما يتأسس على :

١ — التعرف على طبيعة الموقف المضاد ، وطبيعة المقولات التى يرددها ، والدعاوى التى يروج لها ، تمهيدا للتعامل معها .

٢ — نوعية السلاح الملائم للتعامل مع هذا الموقف المضاد .

وهذا ما يلاحظ فى منهج القرآن الكريم ، ومنهج مفكرى الإسلام الذين عنوا بأمر العقائد والدفاع عنها .

نقول : إذا كان منطق الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة يتأسس على ذلك ، فانا هنا نستجيب لهذا المنطق بخصوص هذين الأساسين .

وقد قدر لنا أن نشغل بأمر القضية المادية منذ ان هيأنا الله تعالى أمر البحث العلمى ، فعالجنا جوانب عدة أخرجنا فيها أبحاثا(١) .

لكن ظل جانب تخصيص بحث أو دراسة حول طبيعة المادية والفكر المادى أمرا يلح علينا ويراودنا المرة بعد المرة .

إن قارىء الابحاث التى أخرجناها ، يلمس اننا نبهنا على طبيعة هذا الفكر ، لكن مع ذلك تبقى المسألة بحاجة إلى المزيد وبحاجة إلى أن تتجمع خيوطها فى نسيج واحد .

ثم إن جزءا(٢) غير يسير من تفهم الفكرة المادية يظل مرتبطا بتاريخ هذه الفكره وتطوراتها .

ومن هنا كانت الحاجة إلى صياغة دراسة تتركز حول طبيعة المادية وتاريخها ، فانتوينا بحث :

١ — مفهوم الفكر المادى .

٢ — خصائص الفكر المادى .

٣ — تاريخ الفكر المادى .

---

(١) من مواعم الفكر المادى الإلحادى ، حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م

(٢) مع الفكر المادى فى قضاياه الأساسية ، مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة ١٤١١هـ — ١٩٩١م

والآن نتناول القضية الأولى (مفهوم الفكر المادى — أو الفكر المادى مفهوما) عاقدين العزم على متابعة القضيتين الأخريين فى دراسة لاحقة ان شاء الله .

والله أسال أن يمد بالعون ، وأن يعلمنا ما لم نعلم ، ويوفقنا فيما نعلم ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يهدينا إلى طريق الحق ، وإصابة الحقيقة ، إنه نعم المعين ، ومنه التوفيق وعليه التكلان .

تمهيد :

إن البحث العلمى فى وضعه الصحيح ، يقوم أساساً على سلامة منهج البحث وجودة تطبيقه .

وأولى خطوات منهج البحث السليم ، تحديد المفاهيم تحديداً دقيقاً ، حتى تتسق المعالجة الموضوعية وتترابط ، وتؤدى الأداء المأمول ، وحتى لا تتوزع الأفكار وتتفلت القضايا فلا تنساب العملية الفكرية فى نسق متماسك .

لهذا ، فإن البحث فى المادية والفكر المادى البحث العلمى السليم ، يوجب البدء بدراسة ماهية هذا الفكر وضبط مفهومه لنكون على بينة من الأمر ، فلا يسبق القلم إلى نواحى قد تبعد قليلا أو كثيراً عن دائرة البحث المطلوب ، ولا ينكص ذلك القلم عن نواحى قد تقترب كثيراً أو قليلا عن هذه الدائرة .

إنه الآن ومن قبل ، قد شاع استعمال عبارات : المادية ـ الفكر المادى ـ المذهب المادى - وغيرها للإشارة إلى لون معين من الفكر ، وموقف معين من الاعتقاد ، نشأ ونما وتطور عبر بيئات وقنوات ومسارات متصلة ومتواصلة تربط قديمه بحديثه ، وتشد حديثه إلى معاصره .

وخلال حلقات النشأة والنمو والتطور ارتدى هذا الفكر أثواباً خاصة ، واصطبغ صبغات مميزة ، وتآلفت حوله قلوب وعقول ، ورجال فكر وعلماء ، آمنوا به نصروه ونصروه ، وأذاعوه ، ونشروه ، واتبعوه واعتقدوه ، وصاغوه ومذهبوه ، فأنتج نتائج وأثمر آراء واتجاهات ، كانت ولا زالت وستظل ، تمثل المستوى الأعنف والأخطر فى مناقضة القضية الدينية بعامة ، والدينية السماوية بخاصة ، والسماوية الإسلامية بصفة أخص ، والإسلامية العقدية على وجه الخصوص .

إن القضية المادية هى بقيض القضية الدينية دون شك ، وجهاد الأنبياء ـ

صلوات الله عليهم - وجهاد الدعاة إلى الله تعالى ، كان فى حقيقته متجهاً إلى مقاومة النزعة المادية فى الإنسان وفى الفكر الإنسانى معاً ، بل إن كثيراً من مسببات المقاومة لدعوات الأنبياء وحركة الدعاة إنما يخرج من عباءة المادية ، وكثيراً من مسببات الإلحاد والكفر والزندقة كان من إفراز المادية ، ذلكم هو منطق التاريخ وآيته التى لا تنكر .

وسوف لا نسترسل هنا أكثر من ذلك ، فسيكشف البحث عن جميع أبعاد وتفاصيل الموقف المادى من قضية الدين والإيمان الدينى .

إذن نحن الآن أمام المسألة المحورية المطروحة ، وهى مفهوم المادية والفكر المادى ، فلندخل إليها مستعينين بالله تعالى .

ما الفكر المادى ؟

وفاقاً لمنهج التحليل والتركيب ، سنقف مع هذه العبارة : (الفكر المادى) ، لنحلل لفظيتها : (الفكر ، المادى) ، ونتعرف على دلالة كل منهما ، ثم نعمد إلى التركيب فنصوغ مفهوماً عاماً ومن مجموع اللفظتين ودلالتيهما .

فماذا عن لفظة الفكر ؟

(أ) تطلق لفظة (الفكر) فى اللغة : على «إعمال الخاطر فى الشىء»[1]

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة فكر ، ص ٣٤٥١ ، طبعة دار المعارف ، وقد أورد أن « الفكر والفكر : إعمال الخاطر فى الشىء . . . والفكرة كالفكر وقد فكر فى الشىء وأفكر فيه وتفكر بمعنى . . . التفكر اسم التفكير ، ومن العرب من يقول : الفكر : الفكرة ، والمصدر الفكر =

بمعنى تركيز الذهن ، وشغل البال فى شىء من الأشياء أو أمر من الأمور، بغية العلم به والكشف عنه .

وهذه العملية (عملية الإعمال) تتطلب بالطبع تأملا ، والذى بدوره يتطلب روية وتمهلا، فكل أمر ذى بال يكون موضوعا للتأمل ، يصير أمر تأمله فكراً ، من الوجهة اللغوية .

جاء فى (مختار الصحاح) : «التفكر : التأمل ، والإسم (الفكر) و (الفكرة) ، و المصدر (الفكر) بالفتح وبابه (نصر) ، وأفكر فى الشىء وفكر فيه بالتشديد وتفكر فيه بمعنى ، ورجل فكير ، بوزن سكيت : كثير التفكر »[1] .

إذن الدلالة اللغوية لكلمة الفكر ، تنصرف إلى معنى « إعمال العقل فى الأشياء للوصول إلى معرفتها »[2] ، أياً كان الشىء ، وأياً كانت غاية المعرفة به .

ويبنى على ذلك أن الفكر « يطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية ، وهو مرادف للنظر العقلى .. والتأمل .. ومقابل الحدس)»[3] .

= بالفتح ، قال يعقوب : يقال : ليس لى فى هذا الأمر فكر ، أى ليس لى فيه حاجة ، قال : والفتح فيه أفصح من الكسر » .

(١) مختار الصحاح ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، ص ٥٠٩ ، طبعة ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨ م ، مؤسسة علوم القرآن ، مكتبة النورى، دمشق .

(٢) المعجم الفلسفى ، جميل صليبا ، ج ٢ ، ص ١٥٤ ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ م .

(٣) المصدر نفسه ، الصحيفة نفسها .

(ب) أما الفكر فى الاطلاق الفلسفى ، فقد تعددت أفهام المفكرين والفلاسفة بخصوصه ، لكنها مع التأمل تجتمع عند نقطة مشتركة ، تكاد أن تكون هى نقطة الدلالة اللغوية ، إذ لا يعدو الفكر عندهم أن يكون هو التأمل والنظر العقلى ، وإعمال الذهن ، ودون هذا المعنى أمور ليست أكثر من تفريع عليه وشرح له .

وفى مقام التفصيل نقول :

إن الفكر فى عرف المناطقة ، يرادف النظر . والنظر عندهم يعنى: ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول ، سواء كان هذا المجهول مجهولا تصوريا أو تصديقيا .

هذه العملية (عملية الترتيب) هى عملية فكرية قطعا ، لأنها قائمة على التأمل والبحث والتفتيش، للوصول إلى المعلومات ، ثم قائمة على العلم بكيفية ترتيب هذه المعلومات على وجه يؤدى إلى الكشف عن المجهول، بالتعريف إن كان المجهول تصوريا . وبالبرهان إن كان المجهول تصديقيا .

الفكر إذا عند المناطقة هو النظر الموصل إلى المعلوم بغاية الكشف عن المجهول ، فإذا ما جاوزنا إلى الفلاسفة ، ألفينا الفكر عند الفيلسوف المثالى ، تصورات عقلية ، ترتد آخر الأمر إلى حقائق أولية ، يدركها الانسان بحدسة الصدق[1] ، هى ما تدعى: (البديهيات والأوليات)، وهى قضايا عامة ، فطرية ، ضرورية الصدق ، لاعتمادها على قوانين الفكر . التى هى قوانين فطرية . يحكم بصدقها العقل ، دون حاجة إلى نظر وتأمل[2] ومفاد ذلك ، أن الفكر فى اعتبار الفلاسفة المثالية ، هو عملية تأمل محض

---

(١) التفكير المنطقى بين المنهج القديم والمنهج الجديد ، عبد اللطيف محمد العبد ، ص ١٧ دار العلم للطباعة ، مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) راجع المصدر نفسه ، الصحيفة نفسها .

يمارسها العقل بشكل استقلالى ، تتسم بالتجريد والتعميم ، وهى تنتهى إلى قوانين الفكر القائمة على الذاتية وعدم التناقض .

« على حين أن الفكر عند (الفيلسوف) التجريبى ، تصورات (عقلية) ترتد فى آخر الأمر إلى معطيات حسية »[1] ، أى أن الفكر هنا يتخذ من التجربة الحسية محور نشاط وفاعلية ، فلا يقنع الفيلسوف التجريبى بمقولة الفيلسوف المثالى العقلى ، التى تثق بأن العقل قادر على ممارسة الفكر استقلالا ، لاحتوائه فطريا على مبادىء ضرورية الصدق ، وتصورات لا تصوغها التجربة ، وأنه فى هذا الإطار ينتج الفكر بشكل ذاتى ومباشر ، وأنه طاقة فاعلة لا منفعلة .

الفيلسوف التجريبى لا يقنع بذلك ، بل قناعته تتوقف عند فاعلية الواقع فى العملية الفكرية ومرجعية التجربة فى المعرفة الحقة .

فالعقل عنده ، لا ينشىء العملية الفكرية إبتداء ، ولا هو منطو بذاته على معارف فطرية ، بل ليس أكثر من صحيفة بيضاء تخطها وتنقشها التجربة .

إن العقل هنا منفعل لا فاعل ، تقذف إليه المسألة الفكرية من الواقع والتجارب ، فيقوم بعملية التفكير التى يتوقف صدقها على مدى ما تحظى به من شهادة الواقع .

وأياما كان الأمر لدى أولئك وهؤلاء ، فإن الفكر عندهم يظل منحصرا فى المستوى الذى قوامه التأمل والإعمال .

ويبدو أن الأمر — مع ذلك — لا يزال بحاجة إلى إضافة من الآراء والتفاصيل حتى يتضح أمر الفكر أكثر .

يطلعنا أحد الباحثين على أن الفكر عند الفلاسفة ، يتحدد عبر معان ثلاثة :

---

(١) المصدر نفسه ، الصحيفة نفسها .

الأول : حركة النفس فى المعقولات ، سواء كانت بطلب أو بغير طلب ، أو كانت من المطالب إلى المبادىء ، أو من المبادىء إلى المطالب .

وهذا المعنى — الذى يتضمن معنى الحركة — يخرج (الحدس) لأن الحدس ، إنما هو إنتقال من المبادىء إلى المطالب دفعة لا تدريجا ، أما الفكر فهو حركة وانتقال ، والأولى أن يشترط فى معنى الفكر (القصد) ، لأن حركة النفس فى المعقولات ، بلا اختيار — كما فى المنام — لا تسمى فكرا .

والثانى : حركة النفس فى المعقولات ، مبتدئة من المطلوب المتصور إلى مبادئه الموصلة إليه ، إلى أن تجدها وترتبها ، فترجع منها إلى المطلوب .

فالفكر بهذا المعنى يشمل حركتين : الأولى من المطالب إلى المبادىء ، والثانية من المبادىء إلى المطالب ، وهذا أيضا يخرج الحدس .

والثالث : هو الحركة الأولى من هاتين الحركتين ، أعنى الحركة من المطالب إلى المبادىء ، من غير أن توجد الحركة الثانية معها ، وهذا هو الفكر الذى يقابل الحدس تقابلا يشبه الصعود والهبوط ، لأن الإنتقال من المبادىء إلى المطالب دفعة يقابله عكسه ، الذى هو الإنتقال من المطالب إلى المبادىء وإن كان تدرجا ...

(وقد) اقتصر الفلاسفة المتأخرون على إطلاق لفظ الفكر على الأفعال العقلية دون غيرها ...

وجملة القول : أن الفكر يطلق على الفعل الذى تقوم به النفس عند حركتها فى المعقولات ، أو يطلق على المعقولات نفسها .

فإذا أطلق على فعل النفس دل على حركتها الذاتية ، وهى النظر والتأمل ، وإذا أطلق على المعقولات دل على الموضوع الذى تفكر فيه

النفس ، وهو مرادف للفكرة ، ومنه قولهم : الفكر الدينى ، والفكر السياسى »[1] .

ويفيدنا كل ذلك عدة فوائد ، منها :

١ — أن الفكر عملية عقلية تأملية قصدية إرادية ، فى اتجاه المعرفة والعلم .

٢ — ليس من الفكر فى شىء الإنفعالات ، والعواطف والغرائز . والإرادات »[2] ، ومجارى العادات ، وأمور الحياة التى تمارس بصورة بسيطة ، لأن كل ذلك لا يتطلب جهدا عقليا ، ولا يستدعى تأملا تتوفر فيه الروية والتمهل ، كما قد أشير قبل إلى أنه يخرج عنه الحدس الذى هو سرعة الإنتقال من المبادىء إلى المطالب ، على وجه يقابل ما عليه النظر من إنتقال تمهلى تأملى قد يتوفر إلا مع كد الذهن واجهاده .

مستويات الفكر :

حرى بنا أن نتوقف هنا عند مستويات الفكر البشرى ، لنتعرف عليها ونميزها لأن البحث فى مفهوم الفكر المادى ، يصير أكثر دقة وفاعلية إذا هو قد فرغ من تحديد مستويات الفكر .

إن الفكر البشرى من حيث هو نشاط العقل فى اتجاه المعرفة ، ليس مستوى واحداً ، بل مستويات ، وليست كل مستوياته ، تدخل فى نسق الفكر المادى .

وفى هذا الصدد نستطيع أن نميز فى الفكر البشرى ، ثلاثة مستويات نظن أنها المستويات الرئيسية لهذا الفكر .

(١) المعجم الفلسفى ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ : ١٥٦ مرجع سابق .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٦ .

١ — مستوى الفلسفة .

٢ — مستوى الفكر الفلسفى .

٣ — مستوى الفكر الذى ليس فلسفة ولا فلسفيا .

فالمستوى الأول :

هو ذلك الذى تكون فيه العملية التأملية على أعلى ما تكون عمومية وتجردا من حيث النتائج ، وعلى أكثر ما تكون توفرا على قضايا الفلسفة من حيث الموضوع .

أو بعبارة أخرى : هو الفكر النظرى الخالص ، الذى يتخذ من الحقائق الكلية موضوعه ومادة بحثه . وهى تلك التى تتركز حول معضلات : المبدأ والمصير والغاية ، وحول قضايا : الألوهية والكون والإنسان .

فكلما كان الفكر نظريا بحتا ، عقلانيا صرفا ، ضاربا نحو التجريد والتعميم ، متركزا فى قضايا نظرية ومبادىء عامة كلية ، كلما كان ذلك الفكر فلسفة .

ولا خلاف فى أن هذا الفكر هو أوضح مستويات الفكر البشرى وأكثرها خصوصية ، لأن أداته النظر الخالص ، ومنهجه نظرى خالص ، وقضاياه نظرية بحتة .

ولا شك أن هذا المستوى من الفكر ، هو الذى كتب تاريخ الحركة العقلية الإنسانية وطبع عليها بصمته بقوة .

وداخل هذا المستوى تنتظم الجهود الفلسفية فى الشرق والغرب ، وفى القديم والحديث والمعاصر على حد سواء .

أما المستوى الثانى :

وهو مستوى الفكر الفلسفى ، فنعنى به نمطا من أنماط الفكر، إن لا يكن فلسفة خالصة ، فهو جانح نحـــو الفلسفة وبخاصة فيما يتعلق بالمنهج .

فالفكر الفلسفى هو إنتاج عقلى تأملى ، لكنه لا يجمد على موضوع الفلسفة وقضاياها .

فإذا كان الفيلسوف هو الذى يقف حياته كلها أو جلها فى تأمل واحدة أو أكثر من قضايا الألوهية والكون والإنسان . والمبدأ والمصير والغاية ، فإن المفكر تفكيرا فلسفيا ، هو الذى ينتج رأيا أو عدة آراء تتصل بهذه القضايا أو بغيرها ، معتمداً على رؤية عقلية ، وقد يكون هذا الرأى وليد محاولة جزئية فى فرع من أفرع العلم المختلفة .

فليس مفترضاً فى المفكر الفلسفى أن يكون فيلسوفا خالصاً ، يقف حياته وجهده لتأمل واحدة من القضايا هذه تأملا كليا، بل ولا أن يكون صاحب رؤية فلسفية خاصة أو اتجاه خاص ، بل قد يبدأ عالما مثلا — وحيثية العلم الوصف ، والبحث فى الجزئيات — ثم يصعد من خلال ذلك إلى رأى فلسفى ، أو تصور عقلى ،ذى مسحة فلسفية ، ضاربة نحو التجريد والتعميم وفق صيغة كلية ورؤية عامة ، وقد تتأتى هذه العملية بإزاء واحدة من قضايا الفلسفة ، أو من قضايا أخرى .

ويغلب فى هذه الحالة ، أن يكون الرأى الفلسفى الذى أصدره العالم، قد استند فيه إلى قانون علمى أو عدة قوانين ، أو إلى نتيجة علمية ما . أو تحليل تاريخى أو غير ذلك مما يشمل البحث العلمى فى نطاق العلوم المختلفة ، تجريبية كانت أم غير تجريبية .

الفكر الفلسفى إذن ، هو تصورات فلسفية ، حول جزئيات علمية ، أو جزئية من جزئيات العلوم ، ويدخل فيه الجهود التى تحاول وضع أسس عامة ومبادىء كلية لعلم ما ، أو مسألة ما .

إن العلوم التجريبية هى علوم وصفية ، تجيب عن السؤال :

ما هذا ؟ ولكنها لا تجيب عن السؤال : لماذا ؟ إلا فى نطاق الواقع المشاهد لها ، وتعجز بعد ذلك عن بيان السبب الأول »(١).

« إن العلم لا يهتم إلا باختراع أنموذج تصورى يصف به مجرى انطباعاتنا الحسية ، ولا شأن له بتقديم تفسير للعالم المدرك حسيا بالفعل(٢).

فإذا ما جاوز العالم منطقة الوصف ، إلى منطقة التعليل ، وإلى تقديم تفسير للعالم ، أو لقضية ما ، فإنه يقع فى دائرة التفلسف ونقول عن آرائه هنا ، إنها فكر فلسفى .

إن الفكر الفلسفى ، يبدأ من شىء جزئى ، وجهد علمى ، ثم برؤية عقلية يعطى تصوراً ، قد يصعد أمره إلى أن يكون موصولا بمبدأ ، أو حقيقة كلية ، أى أنه لا يبدأ بالضرورة من نقطة بدء الفلسفة، ولكنه ينتهى إلى ما تنتهى إليه الفلسفة .

---

(١) العقيدة الإسلامية رؤية جديدة فى أسلوب الدراسة ، سعد الدين السيد صالح . ج ١ ، ص ١٤١ ، ١٤٥ ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م دار الهدى للطباعة .

(٢) فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم ، يحيى هاشم حسن فرغل ص ٢٠٨ ، سلسلة البحوث الإسلامية ، مجمع البحوث الإسلامية السنة الحادية عشرة — ربيع الأول ١٤٠٠ هـ = يناير ١٩٨٠ م ، مطابع الأزهر .

وهنا نتذكر طائفة من الباحثين الذين انتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا مفكرين ، لهم فكر فلسفى ، من أمثال : (دارون)[١] ، (دوركايم)[٢] ، (فرويد)[٣] ، وغيرهم .

إن هؤلاء وأمثالهم ، وهم بصدد ما يبحثون من جزئيات فى علوم : البيولوجيا والاجتماع ، والنفس ، قد صدرت عنهم تصورات فلسفية حول الوجود والإله والإنسان ، لا شك أنها محسوبة على الحركة الفلسفية الحديثة بوجه ما ، وإن كانت توضع فى إطار الفكر الفلسفى .

وضمن هذا المستوى من الفكر ، يمكن أن ندخل الكثير من الآراء ، بل ومن العلوم ، فهناك علوم إن لا تكن فلسفة قطعا ، فهى ألوان من الفكر الفلسفى ، مثل علوم : التصوف ، والكلام ، المنطق ، وأصول الفقه من العلوم الإسلامية ، بل وغير هذه العلوم ، مما جنح فيه أصحابه إلى تقديم تصورات عقلية ، وإن كانوا قد بدأوا بداية علمية ، بل بدأوا فى كثير من النص .

ولن نستفيض أكثر من ذلك ، مع إحساسنا بأن المسألة بحاجه إلى المزيد ، لأن ما قلناه — على فرض صحته — كاف فى ما نحن فيه من الحديث عن لفظة (الفكر) .

أما المستوى الثالث :

من مستويات الفكر ، فهو ذلك الذى يتحرك فيه عامة الناس ، فى اتجاه فهم أمر من الأمور العادية أو حل مشكلة من مشكلات الحياة

---

(١) تشارلز دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢)
(٢) إميل دوركايم (١٨٥٨ — ١٩١٧)
(٣) سيجموند فرويد (١٨٥٦ — ١٩٣٨)

الجارية، أو نحو ذلك مما يعرض للإنسان — فرداً كان أو جماعة أو مجتمعا — ضمن حركة الحياة والعمل والتجارب والأحداث ، ويتطلب قدراً من التأمل وشغل البال .

إنه المستوى الذى يتجه فيه العقل إلى ممارسة العملية الفكرية فى القضايا والمسائل العادية ، دون أن يحرص على تقديم تصورات فلسفية .

ويدخل فى ذلك الجهود العلمية والبحثية التى وجهتها علمية بحتة ، أى تقف بنتائجها عند حدود منطقة العلم ، وهى منطقة الوصف .

ويدخل فيه كذلك ، ممارسات العقل تجاه حل مشكلة ما ، أو فهم مسألة ما ، أو اتخاذ قرار معين ، أو قبول أو رفض رأى ، وهكذا ، ومن ثم نسمع عبارات ، الفكر السياسى ، الفكر الاقتصادى ، الفكر الدينى ، الفكر القانونى ، للإشارة إلى الجهد العقلى المبذول فى نطاق علمى خاص ، يتوفر على تقرير المبادىء وتحديد الوسائل والغايات ، وتقنين القوانين ، وكيفية علاج المشكلات الواقعة ضمن هذا النطاق ، أو التى ينتظر أن تقع فيه .

هذا ما هدى إليه البحث فى التعرف على دلالة كلمة (الفكر) ، فماذا عن إختها فى عبارتنا : (الفكر المادى) ؟

المادى :

إن لفظة المادى : فيها النسبة إلى المادة . فلنتعرف على كلمة (مادة) من الناحية اللغوية :

جاء فى معجم (لسان العرب) : « المادة : الزيادة المستعملة ... ومادة الشىء ما يمده ، دخلت فيه الهاء للمبالغة ... والمادة : كل شىء يكون مددا

لغيره ، ويقال : دع فى الضرع مادة اللبن ، فالمتروك فى الضرع هو الداعية وما اجتمع إليه فهو المادة .

والأعراب مادة الإسلام ... وفى حديث عمر — رضى الله عنه — هم أصل العرب ومادة الإسلام ، أى الذين يعينونهم ويكثرون جيوشهم ، ويتقوى بزكاة أموالهم ، وكل ما أعنت به قوماً فى حرب أو غيره فهو مادة لهم »[1] .

وفى مختار الصحاح : « المادة : هى الزيادة المتصلة »[2] .

وفى المعجم الفلسفى : « المادة فى اللغة : كل شىء يكون مددا لغيره ومادة الشىء : أصوله وعناصره التى يتركب منها ، حسية كانت أو معنوية ، كمادة البناء ومادة البحث »[3] .

وفى التعريفات للجرجانى : « مادة الشىء هى التى يحصل معها بالقوة وقيل : المادة هى الزيادة المتصلة »[4] .

ويدلنا ذلك على أن لفظة (مادة) ، هى فى الأصل (ماد) ، ثم زيدت الهاء للمبالغة ، وأنها تدور فى اللغة حول معانى : الزيادة المتصلة — المدد (أى ما تمد به الناس ليستعينوا به على أمر ، وكذا ما تمد به الجيش من

(١) لسان العرب — ابن منظور ، مادة (مدد) ، ص ٤١٥٦، ٤١٥٨ مرجع سابق .

(٢) مختار الصحاح « محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى » ، ص ٦١٨ ، مرجع سابق .

(٣) المعجم الفلسفى ، جـ ٢ ، ص ٣٠٦ ، مرجع سابق .

(٤) التعريفات ، الجرجانى ، ص ٨٤ ، الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ المطبعة الخيرية .

عتاد) — أصول الشىء وعناصره التى يتركب منها حسية كانت أو معنوية .

وهنا نلاحظ عدة أمور :

الأول : أن لفظة (مادى) ، من حيث إنها منسوبة إلى المادة : تأتى وصفا لما يكون منه اليد ، ولما تقع به الزيادة ، ولما هو أصل الشىء — فيقال : رجل مادى ، وعنصر مادى . وهكذا .

وأن لفظة (مادية) ، من حيث إنها مؤنث (مادى) تكون وصفا للمؤنث فيقال : أمرأة مادية . وعناصر مادية ، وأصول مادية .

الثانى : هو أن لفظة مادة بمعناها الحديث ليست من ألفاظ معاجم العربية القديمة ، كما أن لفظتا (مادى ومادية) لم ترد بهما كذلك .

يقول أحد الباحثين[1] « رجعت إلى معاجم اللغة ، ولا سيما (لسان العرب) ، فلم أجد فى اللغة العربية للفظ (مادة) بمعناه الحديث :

والمادة والمدد : هو ما تمد به الناس ليستعينوا به على أمر ، وكذا ما تمد به الجيش من عتاد .

أما لفظ (المادى) — فلا وجود له فى هذه المعاجم »[2]

(١) هو د / أحمد زكى .

(٢) نقلا عن : الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ، د/ محمود عبد الحكيم عثمان ، ص ١٥ ، مطبعة حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية . وهو ناقل عن : مجلة العربى ، ص ٨ ، العدد ١٨٥ إبريل (نيسان) ١٩٧٤ ،

الثالث : أن المعاجم الحديثة ، هى التى صرحت بـ (المادى — المادية) ، كما أعطت للمادة دلالات أخرى غير دلالاتها اللغوية السابقة .

وبخاصة تلك المعاجم التى يغلب عليها الطابع الثقافى ، من مثل : المعجم الفلسفى (١) الموسوعة الثقافية (٢) ، المعجم الوجيز (٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة (٤) الموسوعة الفلسفية العربية (٥) ، وغيرها (٦)

حيث شاعت فى هذه المعاجم والموسوعات عبارات : المادية — المادى — المذهب المادى — النزعة المادية — الإتجاه المادى ، وأمثالها .

---

(١) مرجع سابق .

(٢) إشراف د / حسين سعيد ، دار المعرفة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

(٣) مجمع اللغة العربية ، جمهورية مصر العربية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية .

(٤) نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل ، جلال العشرى ، عبد الرشيد صادق ، راجعها وأشرف عليها وأضاف شخصيات إسلامية د / زكى نجيب محمود ، دار القلم .

(٥) راجع المجلد الأول ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، رئيس التحرير د / معن زيادة ، معهد الإنماء العربى .

(٦) فهناك الموسوعة الثقافية ، د / عبد المنعم الحفنى ، الطبعة الأولى راجع ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ دار ابن زيدون بيروت ، مكتبة مدبولى .
والموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال ، دار الشعب ومؤسسة فرانكاين للطباعة والنشر .

ومن ثم يستطاع القول : إن استعمال لفظى (مادى ومادية) قد دخل حديثا إلى اللغة العربية ، أيضاً استعمال كلمة (مادة) فيما تستعمل فيه الآن لم يعرف فى العربية إلا حديثاً كذلك . وأغلب الظن أن استعمال هذه الألفاظ فى العربية كان أثرا لاستعمالها فى الغرب ، ذلك أنه فى فترة العصر الحديث فى أوربا ، نتيجة للانتصار الضخم الذى أحرزته المادية على الروحية ، نظر كثير من العلماء إلى الوجود نظرة مادية بحتة ، فأصبحوا لا يرون فيه غير المادة ، وأصبحت الحياة فى نظرهم ليست إلا صفة من صفات المادة ، وإذا مات الجسم المادى ماتت صفاته ومنها الحياة طبعاً ، وبذا أنكروا الروح تماما . وأنكروا وجود الله ، ومن هنا ثارت عليهم الطوائف الدينية كلها ، ووصفتهم بأنهم ماديون ووصفت مذهبهم بأنه مادى ... (ثم) انتقلت لفظتا (مادة ومادية) إلى اللغة العربية ، بكل ما تحملانه من معان عن طريق الترجمة (١).

الرابع : أن هذه الألفاظ . (مادة — مادى — مادية) ، ليست من ألفاظ القرآن الكريم ، ولا من ألفاظ الحديث النبوى .

أما من جهة القرآن الكريم فالأمر واضح ، فليس من ألفاظه هذه الثلاثة ، قطعاً .

وأما من جهة السنة النبوية ، فبالرجوع إلى معاجم ألفاظ الحديث والكتب المعنية بالسنة ، وبسؤال بعض المختصين ، نقد ترجح عدم ورود هذه الألفاظ كذلك .

ونتذكر هنا تصريح أحد الباحثين (٢) ، الذين يؤكد ما قلناه ، فيذكر أن

---

(١) الفكر المادى الحديث ... ص ١٥ ، مرجع سابق :
(٢) د / أحمد زكى .

« القرآن الكريم — وهو الأصل الأول من بين أصول اللغة العربية ليس فيه لفظ (مادة ومادية) .

ويقول : سألت أهل الذكر ، فعلمت منهم أن اللفظين لم يردا فى أحاديث الرسول »[1] ﷺ .

الخامس : أن سواد الناس فى الشرق والغرب على السواء — كما يلاحظ د/ أحمد ذكى — « يطلقون كلمة (مادى) على الشخص الذى يعنى أكبر عناية بجمع المال ويقبل على متع الدنيا بكل صورها ، ولا يمد يده بشىء إلى الناس ... فهو بخيل وهو أنانى ... والروحانية بعكس ذلك كله ، دون أن يهتم[2] باعتقاد المادى أو الروحانى فى الله أو الأديان .

ويلاحظ ... أن إطلاق السواد من الناس لفظة المادى بهذا المعنى ليس له أصل فى اللغة العربية وهو متفق مع كلمة (Mtter) فى اللغة الإنجليزية ، وكلمة (Matiere) فى اللغة الفرنسية ، اللتين تعنيان لذة الفم بمادة الطعام والشراب ، والشهوة الجنسية ، والملبس الأنيق والمسكن الجميل ، كل أولئك مادة ، والموغل فى هذه اللذات يسمى ماديا »[3] .

والمادة بذلك ، هى كل ما يحقق اللذائذ الحسية ، من مال أو طعام أو شراب أو لباس أو مسكن أو جنس ، إلخ ...

---

(١) نقلا عن الفكر المادى الحديث ... ص ١٤ ، مرجع سابق ، وهو ناقل عن مجلة العربى ، ص ٨ ، العدد ١٨٥ ، أبريل (نيسان) ١٩٧٤ م

(٢) يعنى سواد الناس .

(٣) الفكر المادى الحديث ... ، ص ١٤ مرجع سابق ، نقلا عن مجلة العربى ، ص ٨ — ١٠ العدد ١٨٥ أبريل ١٩٧٤

وقريب من ذلك ما يشيع فى وقتنا هذا ، لدى الجمهور من الناس ، من إطلاق كلمة (مادة) على المال ، وإطلاق كلمة (مادى) على الإنسان الحريص على جمعه — وكلمة (مادية) على النزعة التى تحرك الإنسان ، دافعة إياه إلى عشق المال وجمعه بأية وسيلة ، بغاية تكثير واكتنازه .

فكأن المادة والمادى والمادية ، فى الاستعمال العادى تتعارض مع ألفاظ : الروح والروحانى والروحانية الدائرة حول الإنصراف عن كل ماهو مادة ومادى .

ولعلنا نستفيد من كل ما سبق أن هناك اضطرابا واختلافا حول هذه الألفاظ ، ألفاظ (المادة والمادى والمادية) فيما بين المصادر قديما وحديثا ، وفيما بين المصادر العلمية والإستعمال الشعبى ، فماذا يا ترى يدلنا عليه المعنى الإصطلاحى للفظة (مادة) ؟

إن لفظة (مادة) تأخذ عدة معان إصطلاحية ، راجعة إلى تعدد الزاوية التى ينظر منها إليها ، وإلى طبيعة النطاق الذى تقع فيه ، من حيث كونه علميا أو فلسفيا أو منطقيا أو أخلاقيا .

فالمادة فى اعتبار الفلاسفة لها عدة معان :

١ — « ... هى الجسم الطبيعى الذى تتناوله على حاله ، أو تحوله إلى شىء آخر لغاية معنية ، مثل المرمر الذى يصنع منه التمثال فهو مادته ، أما صورة التمثال فهى الشكل الذى يسوى به المرمر »[1] .

وهذا المعنى هو المعتبر فى نطاق العلوم الطبيعية ، وأن المادة هى كل ما يشغل حيزا من الفراغ وله كتلة وثقل ووزن ومرونة وعزم وتصور وامتداد ، ويتحول من صورة إلى أخرى .

---

(١) المعجم الفلسفى جـ ٢ ص ٣٠٦ مرجع سابق .

وأخص حالاته : الصلابة ، والسيولة والغازية ، أى أن المادة هى كل ما يؤلف العالم المحسوس أو العالم الخارجى من حولنا .

ومن ثم فـ « إن لفظة (مادة) تعنى ... المقابل للروح ، وهذا واضح فى الثنائية القديمة التى قسمت الوجود إلى قسمين : قسم مرئى وقسم غير مرئى (وأطلق) على غير المرئى الأرواح ، وعلى المرئى أجساداً ، وأطلق عليها — فيما بعد — لفظة مادة ... وفيما بعد أطلق على الثانى (الطبيعة) وعلى الأول (ماوراء الطبيعة) »[1] .

فالقسم المادى من الوجود ، هو ذلك العالم المحسوس ، الذى يدرك مباشرة بالحواس ، أو بوسيلة من الوسائل العلمية ، ويقابله القسم الغير محسوس ، الذى يدرك بواسطة العقل وغيره ، وذلك يجيز القول بأن المادة تقابل الروح تقابل التضاد ، وأن لفظ (الماديين) يخص ، الفلاسفة الذين لايعترفون بالوجود إلا للأشياء والأجسام المادية فقط »[2] .

٢ — « المادة فى الإصطلاح الأرسطى أو المدرسى هى المعنى المقابل للصورة ، ولها بهذا الاعتبار وجهان :

الأول : دلالتها على العناصر غير المعينة ، التى يمكن أن يتألف منها الشىء ، وتسمى (مادة أولى . . أو هيولى) وهى - كما قيل - إمكان محض أو قوة مطلقة لاتنتقل إلى الفعل إلا بقيام الصورة فيها .

والثانى : دلالتها على المعطيات الطبيعية والعقلية المعينة ، التى يعمل الفكر على إكمالها وإنضاجها ، فكل موضوع يقبل الكمال ، بانضمامه إلى

(١) الفكر المادى الحديث ... ص ١٤ مرجع سابق .

(٢) تمهيد للفلسفة ، د / محمود حمدى زقزوق ص ١٧٩ ، ١٨٠ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦ م

غيره فهو مادة ، وكل مايتركب منه الشىء فهو مادة لذلك الشىء ، حسيا كان أو معنويا .

ومن هذا القبيل قولنا : إن مادة المعرفة هى المعطيات الحسية ، التى يتألف منها مضمون الفكر ، وأن مادة الفن ، هى المعطيات التى يستمدها الفنان من تجربته » ، وتبدو المادة هنا فى الاستعمال الأرسطى ، هى ما يقبل الصورة ، أى الصفات والخصائص والأشكال وغير ذلك مما تتصف به الهيولى ، التى هى العناصر الغير معينة ، فتعينها الصورة وتخرجها من القوة إلى الفعل .

وبذلك تكون المادة مقابلة للصورة ، على أنها من جهة إمكان ، والصورة فعل ، وعلى أنها من جهة أخرى ، موضوع لكل مايقبل الكمال ويتركب منه الشىء ، والصورة غير ذلك .

ومع ذلك كله فإن ارتباط مفهوم المادة — فى هذا الاصطلاح — بالوجود الطبيعى يظل واضحا .

٣ — « والمادة بالمعنى الديكارتى ، مقابلة للصورة من جهة وللفكر من جهة .

أما التقابل بينها وبين الصورة فيرجع إلى أن الجسم مؤلف من شيئين أحدهما شكله الهندسى وهو صورته والآخر جوهره المشخص المفرد الموجود بالفعل وهو مادته .

وأما التقابل بينهما وبين الفكر ، فيرجع إلى أن المادة كتلة طبيعية ندركها بالحدس الحسى ، لوجودها خارج العقل ، على حين أن الفكر شىء داخلى مجرد عن المادة وعن لواحق المادة ، لذلك قال ديكارت : إن المادة هى الإمتداد ، وقال آخر : إن تصور المادة لاينفصل عن تصور القوة والحركة والطاقة »[1] .

(١) المعجم الفلسفى ، جـ ٢ ص ٣٠٦ مرجع سابق .

إن هذا التصور الديكارتى للمادة من حيث إنه يفهم المادة على أنها ما يقابل الصورة والفكر ، يقترب من المفهوم الذى تسبقه العلوم الطبيعية على المادة ، وقول ديكارت إن المادة هى الإمتداد فى الزمان والمكان يجعل المادة هى الجوهر المشخص الموجود بالفعل ، فى مقابل المطلق الذى لا يعرف التحديد ولا الإمتداد .

« ٤ — وتطلق المادة عند (كانت) على معطيات التجربة الحسية من جهة ما هى مستقلة عن قوالب العقل . ، فمادة الظاهرة عنصرها الحسى ، أما صورتها فهى العلاقات التى تضبطها وتنظم حدوثها »(١) .

فالمـــادة فى منظور (كانت) ، هى المحسوس ، أو الموضوع الذى يوجد خارج العقل مستقلا عن الصورة العقلية ، التى هى العلاقات التى يضفيها عليها العقل .

وكانت هنا يعبر عن تصوره للمعرفة ، الذى يقوم على « أن المعرفة لا تتم إلا بالخبرة الحسية والمبادىء العقلية معاً .

فالتجربة لها دورها ، والعقل له دوره ، ولا تتأتى المعرفة الصحيحة إلا فى هذا الإطار ... و... أراد ... أن يقيم البرهان على أنه بالرغم من أن معرفة الإنسان يستحيل أن تجاوز حدود خبرته الحسية ، إلا أن هذه الخبرة الحسية نفسها لابد لها من إطارات أو قوالب أو مقولات ، تكون فطرية فى طبيعة العقل ، لتتشكل الخبرة الحسية على غرارها »(٢) .

---

(١) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧

(٢) نظرات فى الفلسفة الحديثة ، أحمد عبده حموده الجمل ، ص ٢٠٦ ، دار الهدى للطباعة الطبعة الأولى ١٤١١ — ١٩٩١م

والمادة هى التى تحقق الخـــبرة الحسية ، ومن ثم فإن المادة لدى (كانت) هى المحسوس .

« ٥ — وتطلق المادة فى المنطق على الحدود التى تتألف منها القضية أو على القضايا التى يتألف منها القياس .

فمادة القضية هى الموضوع والمحمول اللذان تتألف منهما ، أما صورتها فهى النسبة التى بين الموضوع والمحمول ، وتنقسم القضية بهذا الإعتبار إلى : كلية وجزئية وموجبة وسالبة .

ومادة القياس هى القضايا التى يتألف منها ، وهى الكبرى والصغرى والنتيجة ، أما صورته فهى شكله »(١) .

إذن المادة هنا تقابل الصورة ، من حيث إنها ما تتركب منه القضية المنطقية ، وما يتألف منه القياس المنطق ، وليس ببعيد — والأمر كذلك — أن تكون المادة لدى المناطقة أقرب أن تكون أمراً حسياً ، لأن المنطق وإن كان يتعامل مع الفكر ، والفكر عمل عقلى محض ، فإن اللغة تظل أساسية فى العملية الفكرية ، واللغة بطبيعة الحال هى معادن ودلالات ، قوالبها الألفاظ والحدود فى القضية ، والمقدمات فى القياس ، هى فى النهاية دلالات داخل ألفاظ ، والألفاظ محسوسات .

ثم إن المادة المنطقية تظل مقابلة للصورة ، التى هى عمل عقلى خالص بالدرجة الأولى ، لأنها فى القضية النسبة الحكمية ، أى الرابطة بين المحمول والموضوع ، وهذه الرابطة رابطة ذهنية أساساً ، وفى القياس ، هى جملة الشروط التى ينبغى توفرها فى حدود ومقدمات القياس ، وهى شروط يفرضها العقل ابتداء .

---

(١) المعجم الفلسفى ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، مرجع سابق

إذن مفهوم المادة عند المناطقة ، يدخل — فى الجملة — ضمن مقولة أن المادة هى ما يتركب منه الشىء أو ما يؤلف عناصر ذلك الشىء .

٦ — أما المادة فى علم الأخلاق ، فهى « الفعل الذى يقوم به الفاعل ، بصرف النظر عن نيته وقصده كالمعرض الذى يخطىء فيعطى مريضه سما قاتلا بدلا من إعطائه عقارا منوما ، فهو لا يعد قاتلا إلا من حيث مادة الفعل ، أما من حيث صورة الفعل فهو برىء من جريمة القتل »(١) .

فالسلوك الأخلاقى من حيث هو التعبير الفعلى عن المعنى النفسى ، هو ما يأخذ مفهوم المادة عند الأخلاقيين . وذلك ما يسمح بأن نقول : إن الأخلاقيين يفهمون المادة فهما حسيا واقعيا مرتبطا بواقعية السلوك الخلقى . فكل سلوك أخلاقى ، من حيث هو فعل واقع ، هو من قبيل المادة .

تلكم هى أهم الإتجاهات فى فهم المادة . ولنا أن نلاحظ عدة أمور .

الأول : أن كلمة مادة ، تتحدد عبر معان ثلاثة :

١ — ما منه صنع الشىء ، أو أصول الشىء وعناصره التى منها يتكون حسية كانت أو معنوية .

٢ — ما يؤلف العالم المحسوس ، أو العالم الخارجى من حولنا .

٣ — ما ليس عقلا أو روحا .

والمعنيان الآخران هما موضوع اهتمام العلماء والفلاسفة(٢) .

وإذن المادة من وجهة النظر العلمية هى ذلك الذى يتألف منه العالم

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٣٠٨

(٢) راجع الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الأول ، ص ٧١٨ مرجع سابق . والمعجم الوجيز ، ص ٥٧٥ مرجع سابق

الطبيعى ، عالم الأشياء التى تشغل حيزا من الفراغ ، وذات الوزن والكتلة والكثافة والثقل والإنقسام والإنضمام ، وتوجد فى زمان ، وتتخذ أشكالا ، هى الصلابة والسيولة والغازية .

ثم إنها من وجهة النظر الفلسفية ، هى ما يقابل العقل أو الروح . أى العالم الموضوعى الخارجى المستقل عن إدراكنا وتصوراتنا الذهنية . القائم بنفسه خارج أذهاننا وذواتنا .

وهذا الفهم الفلسفى للمادة ، لا يبتعد كثيراً عن التصور العلمى لها ، إذ كل منهما يثق فى أن المادة كيان محسوس ، موجود فى الخارج ، يمتد فى الزمان والمكان : هى ما يؤلف العالم الطبيعى ، المقابل لعالم ما بعد الطبيعة ، أو العالم الروحى العقلى .

إن التصور العلمى والتصور الفلسفى للمادة يلتقيان عند منطقة أن المادة هى الواقع الموضوعى الذى يوجد مستقلا عن الوعى ومنعكسا فيه وهى تكثر لا نهائى للظواهر الموجودة والأشياء والأنظمة .

وهى قوام جميع الخواص والعلاقات والتفاعلات وأشكال الحركة المختلفة . ولا توجد إلا فى ضرب لا نهائى من الأشكال العينية للتنظيم البنائى ، كل منها له خواص وتفاعلات وتعقد فى البناء مختلفة .

الثانى : أن المادة ليست هى العقل ، وليست هى الروح ، وليست هى أى شىء يعكسه العقل أو الروح . أى إنها ليست أحدهما أثرا لأحدهما . بل هى وجود مستقل له طبيعته وكينونته ، تلمس ذلك بشكل قاطع عند الفلسفة القائلة بالثنائية ، والقائلة بالواحدية المادية .

أما الفلسفة التى تصور الوجود تصورا واحديا روحيا ، فلا تنكر المادة ، وإن كانت ترى أن الواحدية الروحية هى الأصل فى الوجود ، وحقيقته الأولى .

الثالث : أن البحث فى المادة علميا وفلسفيا قد مر بمراحل عديدة ، منذ أقدم مدارس الفلسفة اليونانية ، وإلى الآن ، وتطلعنا هذه المراحل على تطور تصور المادة ولكى يتسنى تتبع تطور تصور المادة ، يمكن تمييز المراحل التاريخية الآتية :

١ — منذ طاليس[١] أقدم فلاسفة اليونان حتى نيوتن[٢] .

٢ — مرحلة علم الطبيعة النيوتونى .

٣ — مرحلة القرن التاسع عشر .

٤ — المرحلة المعاصرة .

ففى المرحلة الأولى : ثار السؤال عن المادة الأولى التى يرد إليها كل شىء فى الكون ، فرأى طاليس أنها الماء ورأى (أنكسانس)[٣] أنها الهواء ، ورأى (أنكسيمندر)[٤] أنها اللامتناهى . أى مادة ليس لها كيف معين ولا كم محدد وإنما مزيج من أضداد ، كالحار والبارد والرطب واليابس كما قد رأى (هيراقليط)[٥] أن المادة الأولى هى النار .

كما قد جد فلاسفة يونان الأقدمون فى البحث فى أصل الكون أو المادة التى نشأ منها كل شىء .

فقال (أنباذوقليس)[٦] إن كل شىء فى الكون مؤلف من العناصر

(١) ٦٣١ — ٥٥٠ ق . م

(٢) إسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧)

(٣) (٥٨٥ — ٥٢٨) قدم (٤) (٦١٠ — ٥٤٦) مدم

(٥) (٥٤٠ — ٤٧٥) مدم

(٦) ٤٩٠ - ٣٣٠ ق م - أو - ٤٩٣ - ٤٣٤ ق م .

الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب . وتتألف الأشياء بفعل انضمام هذه العناصر وانفصالها بمقادير مختلفة .

ثم توجه البحث كذلك حول المادة ذاتها . فكان هنالك تصور أن المادة مؤتلفة من ذرات ، أى أجسام متناهية فى الدقة والصغر ، بحيث لاتراها الحواس ، وأن هذه الذرات لا تنقسم ، وهى جميعا مشتركة فى كيفها أو تركيبها ، وإنما تختلف فى أحجامها وأشكالها وأوضاعها فى الأجسام الجزئية ، وإن مختلف أصناف الأشياء تتألف من هذه الذرات بفعل الحركة الذاتية لتلك الذرات ، واختلاف الأجسام عن بعضها البعض راجع إلى اختلاف عدد الذرات التى تؤلفها ، وترتيبها واتجاه حركتها ، ويرجع الفضل فى نشأة هذه النظرية الذرية إلى كل من (ليبسوس) ، و (ديمقريطس)[١] .

ولقد هاجم (ارسطو)[٢] النظرية الذرية ثم طور نظرية العناصر الأربعة التى قال بها « أنبادوقليس » ، حيث ميز بين الأرض والسماء أو ما كان يسميه عالم ماتحت فلك القمر ، وعالم ما فوق فلك القمر ، العالم الأول مؤلف من العناصر الأربعة ، وأنه يكون ويفسد ، أما الثانى فمؤلف من مادة خامسة سماها (الأثير) ، وهو عنصر أكثر لطفا ودقة .

وهذا العالم يضم الأفلاك والكواكب والنجوم ، وهو عالم خالد لا يكون ولا يفسد ، وافترض وجود مادة أولى ، أسماها (الهيولى) ، ومنها نشأ كل شىء فى الكون ، بفعل الحركة القديمة ، وهى مادة ليست متعينة من حيث الكم والكيف .

هذا هو مجمل موقف اليونان الأقدمون من تصور المادة ، ومن الواضح أنهم تصوروها تصورا حسيا ، أو فسروا بها العالم الطبيعى .

(١) ٤٦٠ - ٣٦١ ق م .

(٢) ٣٨٥ - ٣٢٢ ق م .

أما فلاسفة العصور الوسطى : ، من مسيحيين ومسلمين فقد اختلف موقفهم من تصور المادة ، فالمشائيون ، ومن أشهرهم ابن سينا وابن رشد، فقد تابعوا أرسطو على نظرية العناصر الأربعة، فكان أن هاجموا النظرية الذرية ، ثم وقفوا بين آراء أرسطو الأخرى وعقيدة الإسلام فى الخلق .

وأما المتكلمون ، أمثال : (إبراهيم بن سيار النظام) ، فقد تحمس للنظرية الذرية ، وكان يسميها (نظرية الجوهر الفرد) ، أى الجزء الذى لا يتجزأ .

وقد تم إحياء النزعة الذرية المادية فى القرن السابع عشر ، وأصبحت عقيدة ملاحدة القرن الثامن عشر من أمثال البارون (دى هولباخ) الذى يعد كتابه (نظام الطبيعة) من المراجع الكلاسيكية فى المادية ، ونتيجة لنمو العلوم الفيزيقية اعتنق فريق النزعة الذرية التأملية ، باعتبارها مبدأ مفسرا للفيزيقا والكيمياء ، وعلى هذا النحو مهدت لظهور المادية العلمية ، وظفرت هذه النظرية بالتأييد من شواهد علم الجيولوجيا ونظرية التطور العضوى ، التى دلت على أن الحياة والعقل قد تطورا من المادة الجامدة ، وقام التقدم الذى أحرزه علم وظائف الأعضاء بتدعيم هذا الرأى ...

أما فى المرحلة الثانية : وهى التى يمثلها (اسحق نيوتن) ، فإن تصور المادة عنده . يمكن الوقوف عليه بالرجوع إلى أهم اكتشافاته العلمية ، وهى قوانين الميكانيكا ونظريات الجاذبية ونظريته فى طبيعة الضوء .

ومن تلك القوانين وصل نيوتن إلى أن فى كل جزء مادى قوة سماها (الجاذبية) . كما يلاحظ أن علم الطبيعة النيوتونى مرتبط بالحتمية المطلقة ، وتعنى أن المادة تخضع لقوانين ثابتة ، من حيث المبدأ ، اكتشف بعضها ، وسوف يكشف المستقبل عن بعضها الآخر .

وعن المادة كتب نيوتن قائلا : « إنى أرجح أن الله عند ما خلق الدنيا خلق المادة أجزاء جامدة وصلبة ومتحركة ، لا ينفذ فيها شيء ، وليس فى مقدور قوة عادية أن تقسم ما جعله الله واحدا »[1] .

فكأن نيوتن كان يؤمن بذرية المادة وأنها لا تنقسم ، ثم إنه قد اكتشف بعض قوانين المادة ، التى اتخذت أساس فى العلم ، واستغلت فكريا لضرب العقيدة الدينية ثم أضاف قوله بالجاذبية، أو قانون الجاذبية ، الذى يلف العالم الطبيعى بدءا من الذرة وانتهاء بالمجرة .

أما فى المرحلة الثالثة : وفيها تطور تصور المادة ، من خلال علمى الطبيعة والكيمياء ، فإنه يمكننا أن نميز بين ثلاثة أقسام : (تطور نظرية العناصر — علاقة علم الكيمياء بنظرية الذرة — تفتيت الذرة) ، ويعتبر تفتيت الذرة بأكورة اكتشافات علماء الطبيعة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، مما فتح مجالا للتقدم العلمى الهائل .

أما فى المرحلة الرابعة : فقد شهدت اكتشافات علماء الطبيعة فى القرن العشرين بخصوص المادة ، وأهم هذه الإكتشافات : تطوير النظرية الذرية ، ونظرية الكوانتم) ونظرية النسبية .

ثم هو قد شهد تحولا هائلا فى طبيعة المادة ، لا يتسع له المقام هنا ، حيث من المؤكد أنه سترد الإشارة إليه فى ثنايا هذا البحث .

هذا الإلمام التاريخى السريع لتطور تصور المادة فى نطاق الفلسفة والعلم ، يؤكد أن المادة هى ما يشكل العالم الطبيعى المحسوس ، فى

---

(١) نقلا عن : فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم ، ص ٩٥ ، ٩٦ . مرجع سابق

مقابل اللامادى ، وهو عالم ما وراء الطبيعة وفى مقابل العقل والفكر من حيث إنهما ليسا أمرين حسيين .

هذا ما قد هدى إليه المنهج التحليلى لمصطلح أو عبارة (الفكر المادى) ، فهل يتسنى لنا الآن تقديم مفهوم علمى لهذه العبارة ؟

الواقع أنه لن يتسنى هذا الأمر بشكل علمى دقيق وجيد ، إلا بعد تفهم عدة قضايا :

القضية الأولى : عن اتجاهات الفكر الإنسانى .

القضية الثانية : عن مادية العلم ومادية الفكر .

القضية الثالثة : عن المادية قديما وحديثا .

إن بحث هذه القضايا يسهم إسهاما أكيدا فى تقديم تصور جيد عن الفكر المادى .

إتجاهات الفكر الإنسانى : إن الفكر الإنسانى ليس اتجاها واحدا ، أو نسقا موحدا بل تتعدد اتجاهاته ، وتتنوع أنساقه ، ومن ثم يمكن إعداد أكثر من تصنيف لهذا الفكر ، يختلف بعضها عن بعض باختلاف موضوع البحث ، وباختلاف الرؤية داخل الموضوع الواحد .

فمن حيث البحث فى قضية الوجود — مثلا — تبرز اتجاهات قد تختلف كثيرا أو قليلا عن البحث فى قضية المعرفة .

ثم إنه فى داخل كل واحدة من هاتين ، تتعدد الرؤى والآراء والمذاهب والإتجاهات ، وبالرغم من أن بحثنا عن ماهية الفكر المادى تتداخل أطرافه ، وتمتد إلى قضية الوجود وقضية المعرفة ، وربما إلى قضايا أخرى . لكننا هنا يكفينا أن نشير إلى أحد تصنيفات الفكر الإنسانى ، ظانين أنه ليس غريبا عن القضيتين معا .

إننا نستطيع مع الباحثين أن نلحظ فى الفكر الإنسانى اتجاهين اثنين :

١ — الإتجاه الأحادى ، أو الواحدى .

٢ — الإتجاه الثنائى ، أو الإثنينى .

أما الاتجاه الأول : فهو ذلك الذى يرتكز فى رؤيته الفكرية لقضية الوجود إلى مقولة الوحدة ، أو مبدأ الأحادية والواحدية ، فى تقديم تصورات عن هذه القضية .

وفى ضوء هذه الرؤية الفكرية ، تشكل اتجاه فلسفى عرف بـ (الإتجاه الواحدى ، أو الأحادى) ، وهو اتجاه قديم ، يقول بأساس واحد ، أو عنصر واحد ترجع إليه كل الظواهر والتنوعات فى الوجود ، وأصحابه يعرفون بالواحديين أو الأحاديين .

إن هذا الإتجاه الأحادى كان كذلك ، لأنه يرى أن « أساس العالم واحد ، وأن كل وجود يرجع إلى مادة واحدة ، أو مبدأ واحد . وعلى ذلك فإن الواحدية هى تلك النظرة إلى العالم ، التى تبحث عن الوحدة فى الواقع وتهتدى إليها ، وبذلك تجعل من التنوع الزاخر للتجربة البشرية مجرد جوانب متعددة لعنصر نهائى واحد ، وقد يتحقق هذا التوحيد على أساس مادة واحدة ، أو ... روح أو ذات واحدة ، وربما على أساس نشاط واحد أو عملية واحدة »[1] ومن ثم فقد انشق هذا الإتجاه على نفسه ، تبعا للإنشقاق فى تصور الأساس أو المبدأ الواحد ، الذى يفسر به الوجود ، فكان الأحاديون إما :

(١) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها — هنترميد ، ترجمة د/ فؤاد زكريا ص ١٩٧ — ١٩٨ ، الطبعة الثانية ١٩٧٥ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر

١ — ماديين . أو ٢ — روحانيين .

فالماديون منهم ، يرون أن المادة وحدها هى الأصل والأساس فى تصور الوجود ، والروحانيون منهم ، يرون أن الروح فقط هى الأصل والأساس .

وكان طبيعيا أن يقدم الأولون رؤية مادية للوجود ، ويقدم الآخرون رؤية روحية للوجود .

وقد تبنى الرؤيتين كلتيهما مفكرون وفلاسفة فى القديم وفى الحديث وعلم التاريخ وسجل مقولاتهم وآرائهم التى نسجوها ودبجوها حول هاتين الرؤيتين .

ولنا أن نقرر هنا : أن الفكر المادى ينتمى إلى دائرة الفكر الأحادى والواحدى ، ذلك الذى لا يرى إلا المادة جوهرا أوحد ، وعنصرا وحيدا وبها يفسر الوجود ، ويعود إليها كل تنوعاته وتكثره ، وظواهره ومظاهره .

أما الإتجاه الثانى : وهو الإتجاه الثنائى ، فهو كذلك إتجاه فلسفى قديم تبناه فلاسفة عظام ، منذ طلوع فجر الفكر الإنسانى وإلى الآن .

وهذا الإتجاه يقول بوجود أساسيين متعاونين ، يفسر بهما الوجود ويفسر بهما جميع ظواهره وتنوعاته ، ففى القديم كان (انكساغوراس) و (ارسطوطاليس) و (الرواقيون) إثنينيين .

وفى العصور الحديثة جاء (ديكارت) ، فأيد مذهب الإثنينيين)[1] .

والثنائية من ثمة تقابل الواحدية ، وكلتاهما على طرف من القضية ، (قضية الوجود) فإذا كانت الواحدية تجمد على رؤية وحدة الوجود ، وحدة مادية أو روحية ، فإن الثنائية تتسع الرؤيتين معا ، فتقر تداخل

(١) مبادىء الفلسفة ، أ. من رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، ص١٩١ الطبعة الخامسة ١٩٤١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر

المادة والروح فى المسألة الوجودية ، بل وتقر تداخلهما فيها .

وإذا كانت الثنائية تقابل الواحدية ، فإن الواحدية المادية ، تقابل الواحدية الروحية بكل جهاتها ، وتقابل الثنائية كذلك ، إذ ليست فى الوحدية المادية شائبة من روحية أو ثنائية .

ومن المفيد أن ننبه هنا إلى أن الإتجاهات الدينية بعامة ، والدينية السماوية فى أصولها الصحيحة بخاصة ، يشملها الإتجاه الثنائى ، فالدينيون وأرباب الديانات والملل ، بل الرسالات السماوية تقر اقرارا تاما بالمادة والروح ، وتفسر الوجود تفسيرا ثنائيا مبعثه التمييز بين عالمين : عالم الغيب وعالم الشهادة أو عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة .

ويهدينا كل ذلك إلى أن الإتجاه الثنائى يقبل الروحية ولا يرفض المادية ، والأديان السماوية ، بوصف أنها من بيئة الثنائية لا تضحى بواحدة من المادية والروحية ، لا لحساب واحدة منهما ، ولا لحسابهما هى .

عندئذ لا نجد ما يمنع من القول : إن الأحادية المادية تناقض الدين فى أساس الإيمان الدينى وهو الإيمان بالوجود اللامادى ، أو بالغيب ، وبما ينطوى عليه هذا الغيب من حقائق إيمانية تتقدمها الحقيقة الالهية ، وهى حقيقة لا مادية قطعا .

ونقول : إن الأحادية المادية التى هى مناط الفكر المادى لا تتعاطف قطعا مع القضية الدينية فى أخص ما تنطوى عليه من ضرورة الايمان بالغيب والروح والألوهية .

إن هذا الأمر لا تقع فيه الواحدية الروحية ، بل هو أساس تصورها للوجود ، فهى من حيث تقر الروح مبدأ ومرجعا فى القضية الوجودية ، تقر ابتداء الوجود الروحى ، الوجود اللامادى . منطقة نفوذ الدين والايمان الدينى

بل إنى لأتقدم خطوة — قد تكون منطوية على قدر من الجرأة لأقول : أن الواحدية الروحية لاترفض الوجود المادى المحسوس ، بل ترى أنه حاصل ، فقط هو ليس أكثر من ظواهر ومظاهر لحقيقة أولى وهى الحقيقة الروحية . فى حين أن الوحدية المادية لا تجد فى فكرها متسعا لروح أو روحانية ، ولا تجد فى معتقداتها متسعا لما تطرحه القضية الدينية من غيب وغيوب .

ويبدو — والأمر كذلك — أن المنطلق الفكرى لهذا اللون من التصور إستبعاد أن يكون وراء المحسوس وجودا غير محسوس ، أو وراء المادة وجود لا مادية .

ويبدو أيضا أن المعول عليه فى المعرفة إنما هو الحواس ، لأن المادى المحسوس وسياسة إدراكه قطعا الحواس . ومن ثم قيل : إن الماديين القائلين بالواحدية المادية ، هم فى نطاق قضية الوجود ماديون ، وفى نطاق قضية المعرفة حسيون ، ونقول : هم فى نطاق القضية الدينية ملحدون .

ومع ذلك كله ، تبدوا الواحدية المادية — على الرغم من كونها نمطا من أنماط الفكر — ممثلة للطفولة الفكرية أو فكر الطفل لو جاز التعبير ذلك أن الطفل ، لا يرتقى به وعيه عن حدود ما يحيط به من أشياء وأشخاص وأحداث ، فعالمه إذا هو ماتزوده به حواسه ، وهى لاتزوده إلا بطائفة من الموجودات المحسوسة الماثلة فى الواقع المادى .

وإذا كان الطفل لا يبلغ أن يفلسف عالمه الحسى ، فإن معتقد الواحدية المادية يحاول أن يفلسف معتقده ، وهنا يكمن الفرق ، وفى كل الأحوال تبدوا الواحدية المادية وقد وقعت فى التفريط .

وإن كان لا بد من استكمال النظرة التأملية حول اتجاهات الفكر

الإنسانى ، فان الواحدية الروحية تبدوا وكأنها تمثل سقف الوعى الإنسانى بالقضية الوجودية ، فلم تستهلك نظريتها التصورية لحساب المحسوس والمشاهد ، بل صعدت إلى الماوراء ، ورقت إلى الحقيقة المجردة تستنطقها حقيقة الوجود ، أو الحقيقة الوجودية .

ولعل المنطلق لدى الواحدية الروحية فى قولها بوحدة الوجود الروحية ، هو ما عليه الوجود المادى من حركة وتغير ، وكون وفساد الأمر الذى لا يصلح معه هذا الوجود أن يكون حقيقة ثابتة مستقرة لأن الحقيقة من حيث هى ، ينبغى أن تكون ثابتة مستقرة .

ومن حيث ذلك كذلك ، فإن الوجود المادى هو وجود ظاهرى ، وراءه حقيقة غير مادية ، بل حقيقته روحية ، وليس هو أكثر من ظهور الروح ، وهياكل وأشخاص تحلها الروح وتتجسد بها ، وبها تحقق الروح حركتها وغايتها .

فالمادة ليست أكثر من وعاء وهيكل ، أما الحقيقة الوجودية فهى الثابت وراء المادة ، هى وحدة الوجود الروحية ، فالروح هى مبدأ الوجود وعنصره الأول الأوحد ، وبها يفسر الوجود وإليها يعود الوجود ، وفى ضوء ذلك لانجد مانعا من القول بأن أصحاب وحدة الوجود الروحية هم فى نطاق الوجود روحيون ، وفى نطاق المعرفة عقليون[1] ، ثم أنهم دون شك مفرطون[2] .

أما الإتجاه الثنائى فهو قطعا يعبر عن وضع الإعتدال فى المسئلة الفكرية ، إن لم يكن يعبر عن الوضع الفطرى الطبيعى فيها .

---

(١) بالمعنى العام

(٢) من الإفراط

فإن كانت المادة هى الحقيقة عند الأولين ، والروح هى الحقيقة عند الآخرين ، فإن المادة والروح معا يشكلان الحقيقة عند الثنائيين ، ولا نظن ذلك إلا متفقا مع منطق العقل والفطرة والواقع .

ثم إن هذا الاتجاه يحترم قوى المعرفة جميعا ، ويحترم كذلك طاقات المعرفة جميعا ، ومع ذلك كله يثرى القضية الوجودية إثراءا قويا ، يعز قطعا على الاتجاه الأحادى بعامة .

وإذا كان كل من طرفى الإتجاه الأحادى يمثل أحد طرفى الموقف ، (وكلا طرفى قصد الأمور ذميم ، كما قيل) فإن الإتجاه الذى معنا الآن ، لا شك يمثل موقف القصد والإعتدال فلا تفريط ولا إفراط ولا جمود ولا تسلط .

ولنا أن نسمى الإتجاه الثنائى بـ (الإتجاه التكاملى) . من حيث إنه يرصد كلا من القضية الوجودية والقضية المعرفية من زاوية تكاملية التساقية ، فلا تصارع بين المادة والروح ، ولا تناقض بين المعرفة الحسية والعقلية .

فالمادة لها وضعيتها وضرورتها ، والروح هى التى تضفى عليها الحياة والحركة والوجود ينبىء عن الحقيقتين معا ، الحقيقة المادية والحقيقة الروحية .

وهذا الإتجاه — بهذه المثابة — قد انتظم الفلسفات المؤلمة عموما ، كما انتظم الأديان السماوية فى أصولها الصحيحة ، والفكر الدينى من داخل إقراره الوجود الروحى الغيبى المجرد . والوجود المادى المشهود .

مادية العلم ومادية الفكر :

إن بحث هذه المسألة يعين على تفهم حقيقة الفكر المادى عونا كبيرا وبين يدى هذه القضية يلاحظ الباحث فرقا (بين ارتباط العلم بالمادة وارتباط الفكر بها ، وهو فرق فعال ومؤثر دون شك .

فالمادة العلمية ، أو قل : مادية العلوم . هى مادية آتية من جهة الموضوع أى من جهة موضوع البحث لدى العلم ، وهو المادة .

فالعلوم من جهة انها باحثة للطبيعة والإنسان والأحياء وغيرها من مفردات الطبيعة وأحداثها ، تشكل المادة فى كل صورها ومظاهرها موضوعها الأساسى .

ثم إن العلوم فى مجملها ، تأخذ بأسباب المنهج التجريبى ، القائم على الملاحظة والتجريب ، وهو منهج له أدواته ووسائله التى بها يتعرف أحوال المادة وقوانينها ، ومعنى ذلك أن العلوم مادية من جهة منهج البحث .

ثم إن العلوم هى مادية الغاية كذلك ، إذ غاية العلوم تتركز حول التعرف على خواص المادة وتفاعلاتها وقوانينها وكل ما يمكن أن يعين على إمكانية توظيفها والاستفادة منها .

إذن العلوم — فى وضعها الراهن بالذات — هى مادية من جهة الموضوع والمنهج والغاية .

والعلم فى بحثه فى المادة لا يذهب إلى أكثر من مستوى الوصف . وصف الظاهرة أو الحادثة أو الجزئية المبحوثة ، فالعلوم على تنوعها وصفية ، تصف ما هو حاصل ، فى حدود ما تسفر عنه الملاحظة والتجربة ، وليس يمنع العلم هنا أن يتنبأ مستقبليا ، ولكن يظل هذا التنبؤ فى إطاره المحدود بشواهد عملية التجربة .

إن « الأصل فى العلوم الطبيعية أن تخضع الأفكار والآراء والفرضيات والنظريات فيها للملاحظة والتجربة والمشاهدة فما أثبتته التجارب صح تقديره ضمن حدود الإثبات التجريبى وأوصاف الظاهرة المشاهدة »[١].

أما الإنتقال من ملاحظة الظواهر وإجراء التجارب وتقرير النتائج وفق عملية الوصف ، إلى تفسيرات وتعليلات نظرية غير خاضعة للملاحظة والتجربة والمشاهدة ، فذلك موقف فلسفى فكرى ، وليس موقفا علميا قطعا .

إن التفسيرات والتعليلات الفلسفية المجردة : ليست من شأن العلوم الطبيعية ، لأنها أمور فكرية نظرية ، لا علاقة لها ، بالنطاق الأساسى لهذه العلوم ، وهو المادة .

وفى ضوء ذلك نقول : إن مادية العلوم فى أساسها ، ليست موقفا مناقضا للقضية الروحية ، ولا للقضية الإيمانية ، بل إن هذه المادية موقف إيمانى ، لأن الإيمان فى صورته الصحيحة وفى حقيقته الجوهرية يحفز على دراسة الكون وبحث المادة ، وصولا إلى ترقية الحياة ، ولأن الحقيقة العلمية لا شك تشهد للحقيقة الدينية .

ومن ثم فإن العلم ليس حملا ثقيلا على كاهل قضية الإيمان والإعتقاد الدينى ، بقدر ما هو مناصر لها ومعين ، وصدق الله العظيم (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٢] .

---

(١) كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة — عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى ص ٧٥ .

(٢) فاطر ، آية ٢٨ .

ويشهد التاريخ أو جهابذة العلم ، ورواد الحركة العلمية الحديثة كانوا مؤمنين بعقيدتهم الدينية ، دون أن تصطدم بحوثهم أو تصطدم بها بحوثهم ، ودون أن يجدوا فى أنفسهم وعقولهم تناقضا بين ما يعتقدون وما يبحثون .

وهنا نشير إلى أن ظاهرة الصراع بين الدين والعلم ، التى نرصدها فى التاريخ الحديث ، إنما هى موقف خارج عن طبيعة الدين والعلم قطعا .

موقف يحاسب عليه بالدرجة الأولى رجال الكنيسة الأوروبية ، والسلطة الكنسية ، التى مارست الجمود والطغيان والإرهاب على نحو — لو دام — لأجهضت الحركة العلمية الوليدة قطعا ، وهو موقف إن كان يعبر عن شىء فإنما يعبر عن نزعة عارمة إلى التسلط وفرض القهر باسم الدين ، كما يعبر بنفس الدرجة عن حرص شديد على مكانة زائفة ووضع ضال ، ظن فيه الكنسيون أن العلم علمهم والفكر فكرهم ، والدين دينهم كذلك ، وما حديث إرهابهم وطغيانهم وجمودهم بالأمر الذى يغيب ، وما أخبار محاكم التفتيش وبطشها وظلمها بالأمر الذى يخفى .

ولم يكن بد مما ليس منه بد ، لم يكن هنالك بد من ضرورة تجاوز السلطة الكنسية والتخفف من أعباء سطوتها ، ولم يكن لذلك من حل أو مخرج سوى المناداة بالفصل بين الدين والعلم ، أو قل بالفصل بين الدين كما تمثله الكنيسة وبين العلم .

لقد فرض الفصل هذا كحل وسط ، إذ لم يكن ممكنا غيره ، وهو موقف فكرى بالدرجة الأولى ، وإلا فإن العلم قد عاش فى ظل الكنيسة ورعايتها قرونا وقرونا ، وإن كان هو العلم الذى تقنع به .

ولو كانت الكنيسة قد تفهمت الأمور بوعى ، وفهمت النهضة بواقعية ، ما كان حدث الصراع وحدث ما حدث من الفصل بين الدين والعلم .

وتزيد المسألة بعدا آخر ، وهو صحة الدين ، وسلامة النص الإلهى ، فلو كان ما بين يدى الكنيسة من الكتاب المقدس صحيحا ، لكان الأمر على غير ما كان ، لأن الوحى الإلهى فى وضعه الصحيح لا يعارض العلم ولا يناقض الإستفادة من مفردات الكون وظواهره وقوانين الله فيه .

إن العلم فى الإسلام ، لأنه وحى الله الصحيح ، هو من نسيج الإسلام نفسه ، بل من نسيج العقيدة الإسلامية ، التى تأسست إبتداء على العلم ، ودعته بكل أدواته ومناهجه ، والإنسان بكل قواه ومداركه إلى تأمل كون الله ، لرعاية عباد الله وصولا إلى معرفة الله تعالى .

إن قضية الإنسان فى الإسلام هى قضية العلم ، وقضية العبادة والعمل الصالح وعمارة الأرض ، وكلها حلقات مترابطة متداخلة .

إن الإنسان فى المنظور الإسلامى العقـــدى ، هو من قد علمه ربه الأسماء كلها :

(وعلم آدم الأسماء كلها)[1] . فامتيازه من حيث هو إنسان بالعلم ، والعلم بكل شىء ، بكل الأسماء .

ثم إن العقيدة الإسلامية تتأسس إبتداء على العلم ، كما أشرنا ، إنما تتأسس داخل قوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله)[2] . وقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[3] .

ثم إن الكون فى المنظور الإسلامى العقدى ، هو كتاب الله المنظور وعلى الإنسان أن يقرأ سطوره بالعلم والبحث والتأمل والتجربة .

(١) البقرة ، صدر الآية ٣١ .
(٢) محمد ، آية ١٩ (٣) آل عمران ، آية ١٨

ومع ذلك كله ، فالعلم فى الإسلام قيمة مرفوعة رفعة مطلقة : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب)[1]، وهو سبيل إلى رحمة الله ورضوانه : (من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وإن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف البحر ، وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2] .

وقد وفر القرآن الكريم للعلم كل الأصول والمناهج والغايات التى تنميه وتضعه دائما فى طريق الخير ، إلى غاية الخير .

إن العلم فى الإسلام موقف عقائدى مبدئى ، وموقف أخلاقى ، وموقف عبادى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات الفردوس نزلا) ، هنا إيمان وعمل الصالحات فى ضوء علم الصالحات .

وتاريخ الحركة العلمية فى الإسلام شاهد حق على توفر الإنسجام التام بين الدين والعلم ، فاجتمعت فى أشخاص أسلافنا شخصية العالم بالدين والعالم بالدنيا ، وقد كانت كلتا الشخصيتين عونا للأخرى وإثراء لها .

وهاتوا عالما إسلاميا سجل عليه التاريخ موقفا وضع فيه الدين وجها لوجه أمام العلم ، وهاتوا واقعة سجلها التاريخ ، صودر فيها العلم لحساب الدين أو صودر فيها الدين لحساب العلم ، اللهم إلا إن كان فى المسألة بعد آخر ، أو مسها مس السياسة .

(١) الزمر ، آية ٩ (٢) رواه أبو داود والترمذى .

نعود لنقول : إذن هنالك المادية العلمية ، أو مادية العلم ، وهنالك المادية الفكرية أو مادية الفكر ، وبين اللونين فارق هام ، فـ « المادية كاتجاه علمى على ضرورية للحياة ، إذا ما استخدمت فى تفسير عالم الأشياء أما المادية كاتجاه فلسفى ، (فهى) ما جعل المادية أن تكون أعنف اتجاه أمام الدين ، وهى التى تعدت نطاق المادية العلمية وراحت تفكر.. وجود الله ، أو كل ما وراء المادة[1] .

فالعلم فى وضعه الصحيح ، ومن داخل مهمته الأساسية ، وهى الوصف وتقرير الأسباب القريبة التى تعين على فهم الظاهرة وإمكانية توظيفها . ليس ضدا ولا نقيضاً لقضية الإيمان الدينى ، ولا هو على الطرف الآخر منها .

ولا نجد العالم يتجرأ على بحث الأسباب البعيدة ، وعلى لمس القضية الدينية ، وتقديم رؤية تأملية ، لا نجده يفعل ذلك إلا وقت أن يتحول من موقف العالم إلى موقف المفكر .

أما مادية الفكر ، فهى تتحرك دائماً من نقطة المبادىء والأسس بمعنى أنها مادية المبدأ والأساس . ومن ثم فإن موقفها من عالم ما وراء المادة تفرضه طبيعة المبدأ أو المبادىء الفكرية التى تقوم عليها وتثق فيها ثقة نهائية .

والمرجعية الفكرية للمادية الفكرية هى حصر الوجود فى المادة وضغط قضية الوجود فى دائرة الواحدية المادية .

(١) القلق الإنسانى مصادره ، تياراته ، علاج الدين له ، د/ محمد إبراهيم الفيومى ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ — مكتبة الأنجلو المصرية .

هذه المرجعية تفرز قطعا مضاعفات وتداعيات هى مع قضية الإيمان على طرفى نقيض ، وليس من المستغرب — والحالة هذه — أن نجد الفيلسوف الآخذ بفكرة وحدة الوجود ، المادية ، يرفض الأديان ، ضمن رفضه لقضية الإيمان ، الذى يعنى بشكل أساسى الإقرار بالوجود الفائق للمادة ، وعالم ما وراء الطبيعة .

إن الفكر المادى من حيث هو ، واقع فى منحدر الإلحاد قطعاً ، ولا يريد أن يخرج منه ، أما العلم ، فهو إن وقع فيه ، فإنما بسبب من الفكر .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا ينبغى الخلط بين اللونين من المادية هذين : مادية العلم — ومادية الفكر .

إن العلم أولا : « يطلق على حركة كبيرة ، ليست المادية إلا حركة صغيرة منه ، كذلك العلم ليس دائماً مجانبا للقضية الروحية »[1] .

وثانياً : فإننا — من ثمة — نجد العالم يمارس تجاربه وبحوثه وهو فى نفس الوقت مستمسك بعقيدته الدينية ، كما هو الحال فى العلماء الذين أسسوا علم الطبيعة الحديث ، من أمثال : (كبلر)[2] ، و(جاليليو جاليلى)[3] و (إسحاق نيوتن)[4] ، و (بيير جسندى)[5] (روبرت بويل)[6] ، فقد

(١) القلق الإنسانى ... ، ص ٢٠٩ مصدر سابق .
(٢) ١٥٧١ — ١٦٣٠ م .
(٣) ١٥٦٤ — ١٦٤٢ م .
(٤) ١٦٤٢ — ١٧٢٧ م .
(٥) ١٥٩٢ — ١٦٥٥ م .
(٦) ١٦٢٧ — ١٦٩١ م .

كان هؤلاء ، مؤمنين بعقيدتهم المسيحية وبذلك كان البعد الروحى قائماً، بالنسبة لهم »[١] .

ويؤكد على هذا المعنى المفكر المسلم (وحيد الدين خان) ، فيقول : « حين اكتشف علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أن الكون يسيره قانون العلة والمعلول ، تهافت المفكرون الماديون ، لقد زعموا أن هذا الكشف العلمى بديل لله . على الرغم من أن العلماء الذين اكتشفوه لم يزعموا ذلك .

فقد قال (نيوتن): (هذا هو أسلوب الله فى العمل ، فالله يجرى مشيئته فى الكون بواسطة أسباب وعلل) .

ولكن الذين كانوا يريدون صياغة فلسفة جديدة — فى ضوء أحدث الكشوف العلمية — وجدوا أن هذا الكشف يكفى دليلا على إبطال وجود الله ، ومن ثم شيدوا بناء فكرياً كاملا .

وهكذا ظهرت إلى حيز الوجود تلك النظرية التى تسمى (التفسير الميكانيكى للكون) ... وأصبح من الحقائق المسلم بها ، أن جميع وقائع الكون تحدث بسبب علل مادية ، دون تدخل خارجى ، وأن الكون كله مربوط فى سلسلة العلة والمعلول »[٢] .

إن إسحاق نيوتن ، وهو من هو فى تاريخ العلم الحديث ، لم تودع قلبه حرارة الإيمان ، وهو الذى قد استغلت مكتشفاته فى ضرب القضية الدينية وإحراجها .

---

(١) تمهيد للفلسفة . ص ١٩٠ مرجع سابق .

(٢) الدين فى مواجهة العلم ، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الله خان ، ص ٣٢ ، المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع . وراجع تفاصيل أكثر فى ص ٥٠ وما بعدها .

لقد كان هذا العالم نموذجاً لانسجام العلم والدين ، وحيث اكتشف أن العالم يسير وفق قوانين صارمة ، شأنه فى ذلك شأن الآلة الميكانيكية ، لم يبعد به الأمر عن حدود أن العالم آلة ، أو كآلة ، وقد بسط (نيوتن) نفسه أدلته فى مفهومه الذى قدمه للعالم كآلة .

إذ يتضمن هذا المفهوم فكرة وجود صانع يبنى الآلة ، ويخطط إتساقها ونظامها الدقيق . فالساعات والآلات لا توجد صدفة ، وإنما هى مصنوعة بذكاء ، لتحقق غاية معينة .

فلقد كان (الله) فى هذا التصور كصانع ساعة، مستقلا تمام الاستقلال عن عالمه المخلوق ، إلا أنه فى تصور (نيوتن) كان ما يزال لله نوع من التدخل .. إذ كان نيوتن يظن أن بعض المفارقات فى حركة الكواكب والمذنبات تستوجب من الخالق تصحيحات دورية .

أى أن ساعة الكون لا بد من إرسالها بين حين وآخر لصانع الساعة من أجل إصلاحها .

إلا أن ... (بعض) كبار العلماء كـ (لابلاس) رفضوا القول بتدخل إلهى فى نظام الطبيعة طالما قد ثبت صحته وكماله »[١] .

إن المادية العلمية ، لا تعنى اتجاهاً عاماً ، يصب فى مستنقع الإلحاد ، كالمادية الفلسفية ، لأن المادية العلمية فى وجهتها المناقضة لقضية الإيمان فوق أنها موقف فكرى فى حقيقته فهى نتيجة لا مبدأ . ذلك أنه نظراً « لنمو العلوم الفيزيقية ، اعتنق فريق النزعة الذرية التأملية[٢] ، باعتبارها مبدأ مفسراً للفيزيقا والكيمياء .

---

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم ، ص٥٢ مرجع سابق .

(٢) وهى ما قرره ديموقريطس وابيقور قديماً .

وعلى هذا النحو مهدت لظهور المادية العلمية ، وظفرت هذه النظرة بالتأييد من شواهد علم الجيولوجيا ونظرية التطور العضوى ، التى دلت عن أن الحياة والعقل قد تطورا من المادة الجامدة .

وقد قام التقدم الذى أحرزه علم وظائف الأعضاء بتدعيم هذا الرأى، إذ زعم أصحاب هذا العلم أن وجود الحياة العقلية ومداها يتوقف على حجم المخ وهيئته .. (وقيل) : إن الفكر يرتبط بالمخ ، كما ترتبط الصفراء بالكبد والبول بالكليتين »[1] .

أما المادية الفكرية فهى موقف مبدئى يقوم على إعتقاد أن المادة هى جوهر الكون وحقيقة الوجود ، وليس وراءها ما يستحق هـذا الوصف .

إلى هنا نستطيع أن نعلق أن الذى يمثل المادية بصفة أولى هو الفكر أكثر منه العلم، فالمادية الفكرية فى كل ملامحها وأصولها وغاياتها على الطرف المقابل تماما لقضية الإيمان، أما المادية العلمية، فليست من القضية الدينية هكذا دائما ، بل العلم المادى فى تطوراته المعاصرة ، يكاد أن يكون نصيرا لها ومؤيدا ، إن لم يكن هو كذلك بالفعل .

ويتذكر ما قلناه سابقا عن مستويات الفكر نقول: إن الفكر الذى يتحمل تبعة إقامة المادية إبتداء ، ثم رعايتها وتسويقها وتطويرها هو الفلسفة والفكر الفلسفى .

ذلك أن هذين المستويين هما الممثلان للفكر بالمعنى الدقيق، ثم إنهما هما اللذان دعيا المادية ، عبر المذاهب والآراء الفلسفية على مدى تاريخ المادية الفكرية ، وعلى مدى تاريخ الفلسفة والفكر الفلسفى .

(١) الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٢٨٥ مرجع سابق .

لقد أطلت المادية هادية سافرة من نافذة الفلسفة، وتنقلت قوة وضعفا عبر مراحل هى نفسها مراحل فلسفية اختلفت قوة وضعفا . والفلسفة اليونانية خير مثال على ذلك وشاهد[1] .

الفلسفة إذن، والفكر الفلسفى ، هما الصيغة التى عرضت المادية المنظمة نفسها من خلالها ، وهما أكثر صيغ المادية وضوحا واستئثارا بتاريخها .

المادية قديما وحديثا :

لسنا هنا نريد كتابة تاريخ الفكر المادى ، ولكننا نحاول التعرف على ما يمكن أن يكون قد أضافه هذا الفكر إلى نفسه من تطور وأدوات، وما توفر له من وسائل وإمكانات .

والواقع أن الفكر المادى من هذا الجانب يمكن أن نميز فيه بين القديم منه والحديث ، تمييزا هو بالوسائل ألصق منه بالمبادىء . فالفكرة المادية لها جذر واحد هو الوقوف عند المادة وحدها ، ثم تنمو على هذه الجذر الساق والأفرع ، وهى كثيرة متشعبة ، سيتكفل الحديث عن خصائص الفكر المادى ببيانها .

والحديث عن الفكر المادى من زواية قديمة وحديثة لا شك يسهم إلى حد كبير فى التعرف على ماهية هذا الفكر واكتشاف حقيقته .

وبين يدى هذه القضية نقول :

إن الفكرة المادية تعبر عن نفسها من داخل ما يروج ويبرز فى الفترات التاريخية والبيئات العلمية ، ففى القديم ، حيث كانت الفلسفة هى الرائجة

(١) سيأتى تفصيل ذلك فى معرض تناول تاريخ الفكر المادى إن شاء الله .

والمؤثرة ، عبرت عن نفسها من خلالها ، وراجت برواجها ، بل ضعفت بضعفها .

لقد خرجت المقولة المادية من عباءة الفلسفة، واستمدت منها أسباب قوتها وعنفوانها ، وقت أن كانت الفلسفة عنيفة قوية ، ووقت أن كانت الفلسفة — واليونانية بالذات — هى الأم لكل بنات العلم والفكر على حد سواء .

إن أشد توجهات المادية قوة وعتوا واكب مراحل نهضة الفلسفة اليونانية ، ويكفينا هنا الإشارة إلى العديد من المدارس الفلسفية اليونانية التى مثلت الأدوار الأولى لنشأتها وتطورها من مثل : مدرسة طاليس ، والمدرسة الفيثاغورية ، ومدرسة (ديمقريطس) وامتدادها فى فكر مدرسة (أبيقور) والسوفسطائية .

هذه المدارس عملت فى إتجاه المادية بشكل جزئى أو كلى، واستثمرت جهدها فى فلسفة المادة ، تحت إلحاح تقديم الإجابة عن سؤالين متلازمين: ما العنصر الذى كان منه الوجود ؟ ماالكيفية التى صدرت بها الموجودات عن هذا العنصر ؟

ثم لما غربت شمس الفلسفة اليونانية، بدخولها دور التدهور والجمود، ولما استحكمت الصيغة الدينية ، ممثلة فى بسط سلطان الكنيسة المسيحية ، ضعفت المادية وخمدت جذوتها فترة العصور الوسطى المسيحية ، فلما آذنت شمس النهضة الأوربية الحديثة بظهور ، وكان من أسبابها إحياء الآداب القديمة ، من خلال الثقافتين اليونانية والرومانية ، إنتعشت المادية مرة أخرى، وكانت الفلسفة الذرية ، أو النزعة الذرية التى نزعها (ديمقريطس وابيقور) هى أول ما إستيقظت عليه المادية وبدأت تاريخها الحديث .

المادية القديمة إذن هى مادية الفلسفة ، وبخاصة الفلسفة اليونانية ،

تلك الفلسفة التى ما أن قامت واستقامت حتى نشرت ألويتها فى كل مكان ، وانداحت تأثيراتها شرقا وغربا .

أما المادية الحديثة : أو المادية حديثا ، فهى مايمكن تسميته بـ(مادية العلوم الطبيعية) من جهة أن المادية وفلسفة المادة ، حاولت الإستفادة من العلم فى حركته الحديثة الناهضة .

إن الفكر المادى — على وجه العموم — له سماته التى تميزه عن غيره، ولكن الفكر المادى الحديث — بالاضافة إلى إتسامه بالسمة العامة للفكر المادى — إلا أنه يمتاز عنه بسمات لم تتوفر فيما قبله من فكر مادى على وجه العموم .

كانت المذاهب المادية القديمة ... تقوم ... على الوقائع والحقائق ولا تقوم على الظنون والأوهام (على حد زعم الماديين) .

وكان الماديون يتصورون أن المادة هى الحقيقة الثابتة، التى لايتطرق إليها الشك ، لأنها محسوسة ومحصورة فى مكان محدد ... و ... ما لايحس (هو) الوهم الكبير أو الضلال المبين ، لأنه ليس محسوسا ولا محصورا فى مكان .

ومع هذا ، فقد كانت المادية القديمة فلسفة نظرية بحتة ، لا تختلف عن فلسفة ما وراء الطبيعة فى المنهج الذى تعتمد عليه .

ولكن الحال تغير فى أوربا فى القرن السابع عشر ، فغزت العلوم التجريبية الحديثة العقول ، وتدعمت وبلغت قمتها فى القرن التاسع عشر ، وظهرت معها فكرة القوانين العلمية أو الطبيعية ، مثل قوانين : الحركة والحرارة والضوء ، وسائر القوانين التى... تسيطر على حركات الكون وسكناته وتفسر كل ظاهرة من ظواهره ، سواء كان ذلك على الأرض أو فى الأفلاك العلوية .

تنطبق هذه القوانين على المادة فى جميع صورها وأشكالها ومنها مادة الأجسام الحية ومادة الحياة »[١] .

وبذا وجدت المادية فى رحاب العلم الحديث أفضل مأوى وملاذ ، وارتباطها بالعلم ، أنتج عده أمور :

أولها : أنها اكتسبت طابعا خاصا فى نسق الفكرة المادية ، يأخذ هذا الطابع صورته ، من خلال .

١ — « اصطباغ الفكر المادى الحديث بأبحاث المذاهب التجريبية.

٢ — اعتبار الكون محكوما بقوانين عامة وحتمية ، تشمل الكون كله ، فى أرضياته وسماوياته لا يشذ عنها شىء من أجزاء الكون ، حتى مادة الحياة نفسها »[٢] :

الأمر الثانى : أن المادية لما ارتبطت بالعلم ، تطورت بتطوره ، وآية ذلك أن العلم بلغ مداه فى القرن التاسع عشر ، بلغت المادية أوجها فيه .

ومن ثم ، فإن المادية فى هذه الفترة ، يمكن أن يطلق عليها — بصفة عامة — « اسم مادية العلوم الطبيعية لأنها كانت تستند على هذه العلوم ، التى كانت قد تطورت تطورا كبيرا .

وهكذا كانت مادية القرن التاسع عشر تعتمد إما على نتائج (علمى) الطبيعة والكيمياء ، أو على نتائج علم الأحياء .

وفى إطار مادية القرن التاسع عشر ، نجد اتجاهين مختلفين وهما : المذهب المادى الميكانيكى ، والمذهب المادى الديناميكى ، القائل بالطاقة وحدها »[٣].

(١) الفكر المادى الحديث ... ، ص ١٧ ، ١٨ — مرجع سابق .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨ ، ١٩
(٣) تمهيد الفلسفة ، ص ١٩٧ ، مرجع سابق .

الأول : استند إلى نتائج علوم الطبيعة والكيمياء ، ويقول: إن الكون تسيره الحتمية العلمية ويذهب أصحابه إلى الإقرار بنظريات « مطابقة للميكانيكية الفيزيائية ، ومن ذلك مثلا قولهم بأن نسبة الأفكار إلى الخ ، مثل نسبة المرارة الكبد ، أو البول للكليتين »[١].

والثانى : استند على نتائج علم الأحياء وفسر حقائق الحياة تفسيرا ماديا صرفا ، شمل العالم والإنسان ، وتمثل هذا الاتجاه أكثر ما تمثل فى مذهب التطور .

الأمر الثالث : هو أن المادية الحديثة التفت حول هدفها الأساسى ، وهو استبعاد القضية الدينية وما تطرحه من الوجود الغيبى الفائق عالم الشهادة ، بفعل عدة أسباب تصيدتها من العلم ، ووظفتها توظيفا معينا بغية إحراج الدين ، وإثارة الشكوك حول الإيمان والاعتقاد .

ويطلعنا على ذلك المرحوم الأستاذ (عباس محمود العقاد) ، فى كتابه (عقائد المفكرين فى القرن العشرين) ، فيقول :

هنالك أسباب « خمسة ليس فى أسباب التعطيل ما هو أقوى منها ، وأعظم فعلا فى عقول المفكرين الأوربيين وفى عقول غيرهم من نظروا إلى دلالتها مثل نظرتهم ، وحكموا بها على الأديان مثل حكمهم ، وهم غير قليلين بين المفكرين فى مختلف الأقوام ، وهذه الأسباب الخمسة هى :

أولا : كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية ، ومن الأجرام السماوية على العموم .

(١) المصدر نفسه ، الصحيفة نفسها .

وثانيا : ظهور القوانين الطبيعية التى سميت بالقوانين المـادية أو الآلية .

وثالثا : مذهب النشوء والارتقاء .

ورابعا : علم المقارنة بين الأديان والعبادات .

وخامسا : مشكلة الشر .

فقد كان كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية صدمة عنيفة للذين اعتقدوا أن الأرض هى مركز الكون ، وأن السماوات العليا وما فيها من الكواكب والشموس تبع للأرض ، مركز الكون كله ومقر الإنسان فلما عرفوا أن الأرض لا تعدو أن تكون نجما صغيرا تابعا للشمس ... فزعوا من هوان الأرض كلها وهوان الإنسان كله ، وخامرهم الشك فى حكمة القصد والإختيـــار ، ورجحت عندهم ظنون المصادفة والإتفاق.

ثم جاء العلماء الطبيعيون فكشفوا ما سموه قوانين المادة ، وزعموا أنهم يفسرون بها كل شىء حتى الحياة ، فكل ما فى الطبيعة آلات خاضعة لتلك القوانين ، تجرى فى حركاتها على السنن المطردة فى حركات الآلات .

ثم جاء مذهب النشوء والارتقاء ، فألحق الإنسان بسائر الحيوان فى نشأته وتطوره ، وفهم بعض النشوئيين أن تطوره من المادة الحية الأولى يبطل القول بالخلق ، وتميز الإنسان بين عامة المخلوقات.

أما علم المقارنة بين الأديان والعبادات فقد جمع المشابهات بين العبادات البدائية والعبادات المقررة فى الديانات العليا ، فاتخذ أصحابه المذاهب المادية من ذلك دليلا على تسلسل العبادات من أطوارها الأولى بين البدائيين ، بغير حاجة إلى الوحى والتنزيل .. و .. مشكلة الشر ....

قويت جدا فى القرن العشرين لتفاقم الشرور من الحروب والفتن وتنبيه الناس إلى المحاسبة وتقرير التبعات »[١]

هذه الأسباب فى الواقع قد استغلت بشكل حاد لإحراج الدين ودعم توجهات المادية ، وهى أسباب إن كان العلم يسأل عن وجودها ، فقد لا يسأل عن توظيفها هذا التوظيف المناقض للإيمان .

الأمر الرابع : ولعله يقع فى دائرة (تبادل المنافع) ، بمعنى أن المادية لما أخذت من العلم أرادت أن تعطيه ، وأبرز ما تقدمه للعلم ، هو أن يكون بديلا عن الدين فى كل ما يقدمه الدين ، فوكلت إلى العلم ، مهمة تفسير الوجود ونظامه ، وأقامته قيما على المعرفة والقيم ، ودعته إلى أن يتسلم وظيفة الدين فى توجيـــه الإنسان وتنظيم حياته أفرادا وجماعات .

لقد زعم الفكر المادى الحديث ، كفاية قوانين الطبيعة فى تفسير الوجود ونظامه باعتبار أنها قوانين حتمية وأنها تغنى عن الاعتقاد بوجود الله تعالى .

كما زعم كفاية « العلم التجريبى فى حد ذاته باعتباره كافيا لتحصيل المعارف والعلوم من ناحية ، وكافيا فى تقرير القيم والأهداف من ناحية ثانية »[٢] .

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ، عباس محمود العقاد ص٢٣ ، ٢٤ ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت .

(٢) فى الفكر الإسلامى د/ عوض الله حجازى وآخرون ، ص ٥٦٥ مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٠ هـ — ١٩٩٠ م

كما زعم « أن منهج العلم التجريبى — وهو يوجه عنايته كلها إلى الجوانب العملية فى حياة الإنسان ... يسقط البحث فى مسائل العقيدة باعتبارها مسائل نظرية بحتة »[١] .

وقد صنعت فلسفات ومذاهب خاصة لترويج كل ذلك وتسويقه فى كل الأرجاء ولن يغيب عنا (الفلسفة الوضعية) من خلال زعيم الوضعيين الحديثين (أوجست كونت) الذى اعتبر أن الدين حالة بائدة ينبغى أن تنتهى لتصل الإنسانية إلى المرحلة الوضعية ، التى يحل فيها العلم محل الدين والفكر الميتافيزيقى وربط ذلك بجملة العلوم الواقعية ، التى يقوم بعضها بمهمة العمل فى نطاق العالم الطبيعى ، وبعضها الآخر بمهمة العمل فى نطاق حياة الإنسان وحركة المجتمع ، ومع كل هذا لم يبق للدين شىء ، لا فى مجال التفسير ولا فى مجال التوجيه ، ومن ثم لم تعد له فائدة ولم تعد به حاجة[٢] .

إن الدعوة إلى إحلال العلم محل الدين ، هى واحدة من أبرز سمات الفكر المادى الحديث ، ولا شك أن منبت هذه الدعوة هو نقطة التقاء المادية الحديثة بالعلم .

إن ذلك كله يظلعنا على الطابع العام المادية الحديثة ، وهو طابع يختلف إلى حد كبير عن طابع المادية القديمة ، هذه مادية الفلسفة ، وتلك مادية العلم .

ولا نود أن نودع هذه القضية (قضية المادية قديماً وحديثاً) . دون أن نشير إلى أن الفكر المادى الحديث ، يجد شرعية فى التصاقه بالعلم ،

(١) المصدر نفسه . الصفحة نفسها .

(٢) التفصيل آت بمشيئة الله فى معرض الحديث عن خصائص الفكر المادى .

تلك الشرعية التى ترتكز على أن نقطة البدء فى الفكر المادى والعلم معاً هى المادة ، فالمادة هى منطقة نفوذ كل منهما وشغله الشاغل .

العالم يجرب ويلاحظ ويكتشف ويوظف ، والمادى يقتات من نتائج العلم ، تحت مبرر أنه معنى كذلك بالمادة .

كما نود أن نشير كذلك إلى أن انتعاش المادية بعد طول سبات ، كان فى ظل انتعاش النهضة الأوربية ، وبخاصة فى قسمها العلمى .

إن بداية عصر الفكر المادى الحديث — على وجه الدقة — يتحدد « بالقرن السابع عشر ، منذ (بيكون) ، الذى يعتبره مؤرخو الفلسفة الفاتحة الحقيقية لعصر التجريبية الحديثة ، وإن كانت بشائر التجريبية الحديثة قد ظهرت فى عصر النهضة ، على أيدى أمثال (كوبرنيكوس) ، (ليوناردو دافنشى) و (جاليليو) .

وظل الفكر المادى الحديث يتطور فى طرق شتى ، حتى كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فساد فى التفكير ، وتأثرت به أوربا كلها ، وصدرته إلى كثير من أنحاء العالم ، مدعوماً بقوة المال والسلاح »[١] .

وأخيراً نشير إلى ماقد نبهنا إليه قبل ، وهو أن الفكر المادى فى تاريخه الحديث قد أحرز تقدماً ملحوظاً ، مرجعه إلى امتلاك أدوات ووسائل ، لم تكن مملوكة له من قبل .

والآن : حان وقت الإجابة على السؤال المحورى فى بحثنا هذا ، والمطروح فى بدايته : ما الفكر المادى ؟ .

(١) الفكر المادى الحديث ... ، ص١٩ . مرجع سابق .

وعلى طريقة المناطقة فى التعريف : نحاول وضع أيدينا على أبرز ما جاء فى ثنايا تحليلنا للفظتى : (الفكر . والمادى) ، لتكون أساساً لصياغة مفهوم عام ، ينتظم الفكر المادى فى شتى صوره ومذاهبه واتجاهاته ، مع افتراض أن هنا لك فوارق ، لكنها لا تمس الأساس ، ولا تؤثر فيه، فالفكر المادى ملة واحدة ، وإن تعددت بداخلها الآراء والمذاهب .

يفيدنا تحليلنا السابق عدة أمور :

١ — إن المادة علمياً هى ما يتألف منه العالم الطبيعى ، وفلسفياً هى ما يقابل العقل أو الروح .

٢ — أن الفكر المعتبر فى باب الفكر المادى هو الفلسفة والفكر الفلسفى .

٣ — أن الفكر المادى ينتمى إلى دائرة الفكر الواحدى أو الأحادى .

٤ — أن هذا الفكر يقوم على اعتقاد الواحدية المادية ، أو الايمان بوحدة الوجود المادية .

٥ — أنه يرفض مادون المادة ، وكل ما فى الوجود إما مادة أو أثر من آثارها .

٦ — أنه يناقض القضية الدينية فى أخص ما تنطوى عليه وهو إقرار الألوهية والغيب .

٧ — أنه من ثمة ذو طبيعة إلحادية، تتركز حول إنكار الإله المفارق الخالق .

٨ — تأليه المادة ، فهى حقيقة الوجود وموضوعه وغايته .

٩ — تأليه العلم الوضعى ، فى صورة البديل عن الدين .

تلكم هى أخص خصائص الفكر المادى ، وبمراعاتها يمكن القول بأن الفكر المادى هو :

(ذلك اللون من الفكر الذى يؤمن بوحدة الوجود المادية، فى أخص حالاتها، وهى رفض الوجود اللامادى، موضوع الإيمان الدينى، واستبعاد الدين من نطاق التفسير والتوجيه ، لحساب العلم الوضعى البشرى) .

إن الفكر المادى — فى شتى صوره واتجاهاته — لا يخرج عن هذا الإطار، فتلك طبيعته وتلك عمله وجهاده، وسيطلعنا الحديث عن خصائص الفكر المادى ، على ملامح أكثر وأوضح ، بإذن الله .

وهنا نستعيد مابدأنا به من أن الفكر المادى يقف على الطرف المقابل للقضية الدينية ، فى صورتها العامة ، وفى صورتها السماوية بصفة خاصة، وفى صورتها الإسلامية بصفة أخص .

وهنا مكمن الخطر ، ومحك الخطورة ، فالتصور المادى يمثل العداء التقليدى والتاريخى لكل منزع إيمانى ، جاء هذا المنزع من لدن الفكر المؤله ، أو من لدن الوحى السماوى .

وسيبقى هذا العداء ، ولن يقبل بمادون الغاية التى يتغياها : غاية أن يكون الإلحاد دينا ، والقاموس الإلحادى مرجعاً وكتاباً ، والوضعية الخالصة منهجا وفكراً ونمط حياة .

من هنا، ينبغى أن يعمل العاملون فى حقل الدعوة إلى الله تعالى، وأن يتنافس المتنافسون، فى حراسة الدين ، والذب عن حمى شرع الله الحكيم.

هذا الدين الذى رضيه لنا ربنا وأتمه وأكمله (الإسلام) .

وهذا الشرع الذى فيه سعادة الإنسان، ونجاح الحياة، وعز الحضارة.

إن الإسلام يكاد أن يكون هو الهدف والمستهدف ، وأننا كمسلمين

نكاد أن نكون حطب المعركة الشرسة (معركة العلمانية) ، التى فلسفت الإلحاد ، وطرحته بديلا عن الدين .

إن العلمانية لاشك هى الثوب الذى تدثر به الفكر المادى فى تطوراته الحديثة والمعاصرة .

ومن حيث إن هذه العلمانية هى الصبغة البديلة للدين فإنها تمثل أرض المعركة التى تدور رحاها الآن بين منهج الله تعالى ممثلا فى الإسلام وبين منهج البشر ممثلا فى الهجمة الشرسة ، التى تصاعد أمرها حتى وسمت الدين بأنه مخدر وأنه أفيون الشعوب ، وأنه مرحلة أو شك أمرها إلى انتهاء .

واستكمالا لملامح الصورة حول مفهوم الفكر المادى ، يتعين التنبيه على أمرين اثنين :

الأول : عن المادية .

الثانى : عن المذهب المادى .

فأما عن الأمر الأول :

فإن المادية بطبيعة الحال هى منطلق حركة الفكر المادى ، فليس هذا الفكر إلا الصياغة الفلسفية للنزعة المادية التى قد تفرض نفسها بداية كعقيدة ميتافيزيقية ، تتطلب فى النهاية فكراً يعبر عنها ، ومذهبا يؤلف حولها .

إن المادية فى ضوء ما سبق ، لاتعدو أن تكون مذهباً يرد كل شىء إلى المادة فهى أصل ومبدأ ، فالمادة توجد خارج الذهن البشرى وجودا مستقلا ، فهى ليست بحاجة إلى أى ذهن لكى تكون موجودة .

وقد اتضح ذلك بآثاره فى نزعات فلسفية وسياسية مختلفة ، وتقابل الروحية والمثالية .

وجميع النظريات المادية ... تذهب إلى القول بأن العالم المادى هو

عالم محتوى فى ذاته ، فالمادة حقيقة قائمة بذاتها ، وأن أحاسيسنا وأفكارنا ما هى إلا نتيجة لها ، وأنه يمكن معرفة كل ما هو موجود فى هذا العالم والقوانين التى تتحكم فى ظواهره ومظاهره عن طريق التجربة والنشاط العلمى .

وذلك يعنى أنه عالم مغلق ، تغفل إحدى نظرياته عمليات الشعور والوعى تماما ، بينما تشير النظريات الباقية إلى وجود عمليات عقلية ، وبخاصة فيما يتعلق بالشعور والوعى ، أى أن المادة هى الواقع الأول ، وأن العقل هو المعطى الثانى .

فالمادية من ثمة تنفر من الثنائية ، على نحو ماعبر عنه الفكر المادى وترى الواحدية المادية حقيقة الوجود وقانونه العام .

وتؤكد على أن العالم حقيقة موضوعية ، وليست ذاتية ، فهو موجود خارج الإدراكات والتصورات الذهنية ، مستقل استقلالا تاما عن الفكر .

« إن العالم الخارجى موجود خارج إدراكنا وتصوراتنا الذهنية ، مستقل استقلالا تاما عن وعينا وإدراكنا ، لأنه واقع موضوعى مستقل عن الذهن ... » .

والحقيقة النهائية فى العالم أو الكون هى المادة التجريبية ، وهى السبب الأعمق للظواهر الكونية ، ولايوجد وراءها شىء يمكن اعتباره سببا لوجود الكون واستمراره وبقائه ... »[1] .

فالمادة — فى اعتبار المادية ، هى كل شىء وليس لشىء من أشياء

(١) حوار بين الفكر الدينى والفكر المادى ، د/ أحمد زكى تفاحة ص ٩٢ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٢ م

الكون والعالم حقيقة وراء طبيعته المادية ، ووجوده ليس وجوداً مثاليا حاصلا من فرضية ذهنية ، ولكنه وجود موضوعى ، متحقق فى الخارج استقلالا .

ويدفعنا ذلك إلى أن نقول مع القائلين : إن المادية بمعناها الفلسفى هى « النزعة القائلة بأن كل ماهو موجود مادى ، أو يعتمد كلية فى وجوده على المادة ، وهذا الرأى يشمل :

(ا) القضية الميتافيزيقية العامة ، التى مؤداها أن لاوجود لغير نوع واحد أساسى من الواقع وهذا النوع مادى .

(ب) القضية الأكثر تخصصا ، ألا وهى ، أن الكائنات الإنسانية والمخلوقات الحية الأخرى ليست كائنات ثنائية مركبة من جسم مادى وروح لامادية ، وإنما هى أساساً جسمية فى طبيعتها »[1] .

وهكذا تظل المادية على الوجود بنظرة لاترى بما فيه إلا المادة ، ولاتعتبر إلا المادة فهى مبدأ الوجود وموضوعه وغايته .

إن المادية تتركز حول عقيدة أن المادة وحدها هى الموجود الحقيقى ، وبالمادة وحدها يفسر الكون والمعرفة والسلوك[2] ، فلا غرو أن كانت المادية مذهباً مقابلا للمثالية التى تجعل العقل أصلا للكون والوجود[3] .

تلكم هى طبيعة المادية فى مستواها الفلسفى ، ومن ثم رأينا كيف أن

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ٢٨٤ ، مرجع سابق .
(٢) راجع المعجم الوجيز ، ص ٥٧٥ ، مرجع سابق .
(٣) راجع الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٦١٢ ، مرجع سابق .

الفكر المادى يتجاوب مع تلك الطبيعة ، فى محاولات عديدة ومتطورة ، لتكريس هذه الطبيعة وتثبيت أركانها .

وقد عمل الفكر المادى من داخل إطار عام ، ونسق متكامل ، عبر عنه المذهب المادى ، الذى جعل من الفكرة المادية منطلقا ومنطقة عمل ونفوذ ، فيتولى إقامة أركانها ، والتأليف حولها ، وإحداث تداعيات تأثيرها .

فما المذهب المادى ؟

الأمر الثانى :

إن جهود الحركة المادية عبر التاريخ قد عبرت عن نفسها من داخل عدد من المذاهب والإتجاهات ، تعمل جميعاً فى نطاق الفكرة المادية .

فالمذاهب المادية فى جملتها : « لاتعترف بشىء فى الوجود وراء الحس والمشاهدة .

بذلك مبدأ رئيسيا مشتركا ، تقوم عليه جميع الأديان ، وتقره سائر الفلسفات »[1] ، وهو عالم ما وراء الطبيعة ، أو عالم الغيب ، أو عالم الروح .

وجميع المذاهب المادية من ثمة تثبت على اعتقاد الواحدية المادية ، تفسر بها الوجود والمعرفة والأخلاق ، وحتى لو قال بعضها بإله أو آلهة فإنه يصورها تصويرا مادياً ، فقد « اشتهر عن أبيقور .. أنه كان يزعم أن الآلهة تعيش عيشة مثالية فى اللهو والنعيم ، وأنها لاشأن لها بالعالم ، حتى يرجو الناس خيرها ، أو يخشوا غضبها .

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ٢٨٤

وقد (أفلاطون) بحثا فى كتاب (القوانين) ذكر فيه أن الإلحاد نوعان : أحدهما : إنكار الألوهية ، والثانى : الإعتراف بآلهة لاتعنى بشئون الإنسان ، وأخذ يسرد الدلائل العقلية على بطلان هذا الرأى وفساده »[1] .

وحتى (ديمقريطيس) . أستاذ أبيقور وسلفه الذى نسج على منواله ، كان يذهب فى شأن الألوهية مذهبا يقع فى عفن الإلحاد ذلك أنه لم يقل « بإله خالق ، بل قال بآلهة متعددة ، و ... أن الآلهة مركبة من ذرات كالبشر ، إلا أن تركيبهم أدق فهم لذلك أحكم وأقدر وأطول عمرا بكثير ، ولكنهم لا يخلدون ، (بل) خاضعون للقانون العام ، أى الفساد بعد الكون .

فالآلهة ذريون ماديون ، وإمعانا فى المادية ، فإننا نراه يقرر أن فكرة الآلهة قد نشأت من الخوف من الظواهر التى تحدث فى الأرض حينا وفى السماء حينا ، فتنخلع لها قلوب البشر ، كالزلازل والبراكين والمذنبات والشهب وما إليها .

وليس للآلهة أى فعل فى الكون ، لأنه إن كانت العوالم تسير من تلقاء نفسها وبآلية مطلقة ، فلا مدخل للآلهة فى شىء ، بل إنها نفسها خاضعة لتلك الإرادة .. »[2] .

المذهب المادى بهذه المثابة يفلسف الإلحاد ، من خلال الجمود على القصور المادى للوجود ، ومن خلال الإصرار على إلباس كل جوانب هذا الوجود ومظاهره ثوبا ماديا .

---

(١) الدين ... ص ٦١ هامش ، مرجع سابق .

(٢) أضواء على الفلسفة اليونانية ، ص ١٩٩ ، مرجع سابق :

إن المذهب المادى يعكس الفكرة المادية ، على أنها عقيدة ، ثم يأخذ فى إقامتها على نحو تظل فيه مقابلة تماما لما تقره الأديان ، والفلسفات المثالية والمؤلهة ، من الثنائية أو من الروحية ، فلا غرو كان المذهب المادى ممثلا لفكر الإلحاد الصريح ، والناطق الرسمى بلسان المادية الشاملة .

فالمذهب المادى لايدع مجالا لغير المادة فى تصوره الفلسفى للقضية الوجودية ، بله القضية المعرفية والقضية الأخلاقية وغيرهما ، ومن ثم :

١ — « يطلق فى علم مابعد الطبيعة على مذهب الذين يقولون إن المادة وحدها هى الجوهر الحقيقى ، الذى يفسر به جميع ظواهر الحياة ، وجميع أحوال النفس .

والمذهب المادى بهذا المعنى مقابل للمذهب الروحى ... الذى يثبت وجود جوهر مستقل عن المادة وهو الروح .

٢ — ويطلق المذهب المادى فى علم النفس على القول أن جميع أحوال الشعور ظواهر ثانوية ناشئة عن الظواهر الفيزيولوجية المقابلة لها .

٣ — أما فى علم الأخلاق ، فالمذهب المادى هو القائل إن غاية الحياة هى الإستمتاع بالخيرات المادية وحدها[1] » .

هذا المنزع بهذه الخصوصية هو دعامة بناء المذاهب المادية القديمة والحديثة على سواء ، فـ« المادية الكلاسيكية ، (وهى مذهب أبيقورس) فى العصور القديمة ، ومذهب (لاسترى) و (دولباخ) فى العصور الحديثة ، لا تنسب إلى المادة إلا تغيرات كمية .

---

(١) المعجم الفلسفى ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .

على حين أن المادية الجدلية (وهى مذهب ماركس وانجلس) تدخل على المادة حركة جديدة ، تجمع بين التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية ، وتؤدى فى نهايتها إلى قيام حياة روحية مستقلة عن الظواهر المادية ، وإن كانت فى بدايتها ناشئة عن المادة[١] » .

فالمادة هى الهيكل الذى يتعبد فيه الماديون ، وهى الإله الذى يقدسون ، والغاية التى من أجلها يسعون . وعلى هداها يفكرون ويتمذهبون ، وإليها يدعون .

ومن واقع ذلك ملأت المادة عليهم جوانب أنفسهم وعقولهم . فما عادوا يقبلون أى تفسير ينبنى على أسباب غير مادية ، فكل الظاهرات لابد لها من سبب مادى . والكون كله مربوط فى سلسلة العلة والمعلول .

إن منظومة العلل والمعلولات المادية ، والأسباب الطبيعية ، هى التى ينبغى - فى اعتبار المذهب المادى - أن يقرأ بها كتاب الكون ، ويفهم فى ضوءها نظام الوجود . ولا شىء غيرها تلك العلل والأسباب التى تقول شيئا واحدا ، هو أن العلم كاف كل الكفاية لتفسير جميع الأسرار .

وفى هذا الإطار يكتب السير / (جيس فتزجيمس) عام ١٨٨٤ ، فيقول : « إذا كانت الحياة الإنسانية فى نشأتها قد استوفى العلم وصفها ، فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين ، إذ ماهى فائدته ، وما هى الحاجة إليه ؟ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره ، وإن تكن وجهة النظر التى يفتحها العلم لنا لا تعطينا ما نعبده ، فهى كفيلة أن تعطينا كثيرا مما نستمتع به ونتمناه »[٢] .

---

(١) المصدر نفسه ، الصحيفة نفسها .

(٢) نقلا عن عقائد المفكرين فى القرن العشرين ، عباس محمود العقاد ، ص ١٩ .

أيضاً نطالع مايقرره زعيم الفلسفة الوضعية — وهى أم المادية الإلحادية المعاصرة — (أوجست كونت) ، فيقول : « (إن الظاهرات الطبيعية لابد لها من أن تعود إلى سبب طبيعى . وأن يكون من المستطاع تعليلها تعليلا علمياً مبناه العلم الطبيعى ، فلم يبق هناك فراغ يسده الإعتقاد بوجود الله[١])» .

ونجد (البارون دى هولباخ) . أحد غلاة الماديين الملاحدة فى القرن الثامن عشر ، يذهب فيفسر « الشعور على أساس فيزيقى ، باعتباره طريقة للتأثر واستقبال المؤثرات عن طريق الجسم ، ويرفض الأرواح اللامادية على أساس أنها لاتوصف إلا فى عبارات سلبية ، وبالتالى تظل مستعصية على الوصف والتفسير الحقيقيين[٢] » .

ثم نجد فى المادية الحديثة ، من يزعم أن وجود الحياة العقلية ومداها يتوقف على حجم المخ وهيئته ، وفى هذا الصدد .

« ذاعت شهرة الفسيولوجى الألمانى (كارل فوجت — ١٨١٧ : ١٨٩٥) ، لعبارته التى قال فيها (إن الفكر يرتبط بالمخ ، كما ترتبط الصفراء بالكبد ، والبول بالكليتين[٣]) » .

وبهذه المثابة ، يتراءى المذهب المادى قائماً بالترويج لمبادىء المادية ، من واقع العمل فى اتجاه صياغة أنساق فكرية وآراء فلسفية ، تعبر عن هذه النزعة ، وتروج لها ، وتعمل على تسويغها وتسويقها فى دوائر الفكر والعلم ، عبر مسارات التاريخ .

---

(١) نقلا عن : فى الفكر الإسلامى ، د ، عوض الله حجازى وآخرون ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، مرجع سابق .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ٢٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، الصحيفة نفسها .

إن المذهب المادى فى جملته وتفصيله ، قديمه وحديثه ، يلتف حول إعلان ، ذى عبارات صارمة قاطعة ، المادة هى العلة الأولى لذاتها ، وهى أيضا نقطة البدء فى ظواهر الطبيعة ، و .. الخاصية الوحيدة للمادة فى مبدأ الأمر فى أنها كانت (كما) معينا أو كتلة .

وبناء عليه يجب أن تعتبر جميع الخواص الأخرى كنتائج لهذه الخاصة الوحيدة ، ولها وحدها[1] » .

ذلكم هو رسم المادية ، والفكر المعبر عنها ، والمذهب المروج لها ولا تظن جهة يمكن أن يصيبها نزق المادية وطيشها الملعون إلا الدين ، والدين فقط .

والله من وراء القصد

ولا حول ولا قوة إلا بالله ؟

(١) الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبى ص٧٦ .

مصادر البحث

القرآن الكريم .

السنة النبوية .

١ — أضواء على الفلسفة اليونانية ، ج١ — د/أحمد عبده حموده الجمل .

٢ — التعريفات - الجرجانى .

٣ — التفكير المنطقى بين المنهج القديم والمنهج الجديد - د/عبداللطيف محمد العبد .

٤ — تمهيد للفلسفة - د/محمود حمدى زقزوق .

٥ — حوار بين الفكر الدينى والفكرى المادى - د/أحمد زكى تفاحة .

٦ — الدين فى مواجهة العلم - وحيد الدين خان ، ترجمة ظفرالله خان .

٧ — الدين ... - د/محمد عبدالله دراز .

٨ — الظاهرة القرآنية - مالك بن نبى .

٩ — عقائد المفكرين فى القرن العشرين - عباس محمود العقاد .

١٠ — العقيدة الإسلامية رؤية جديدة فى أسلوب الدراسة - د/ سعد الدين السيد صالح .

١١ — الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه - د / محمود عبد الحكيم عثمان .

١٢ — فى الفكر الإسلامى - د/ عوض الله حجازى وآخرون .

١٣ — فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم — د/ يحيى هاشم حسن فرغل .

١٤ — الفاق الإنسانى مصادره تياراته علاج الدين له — د/ محمد إبراهيم الفيومى .

١٥ — كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة - عبد الرحمن حسن الميدانى .

١٦ — لسان العرب — ابن منظور .

١٧ — مبادىء الفلسفة — رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين .

١٨ — مختار الصحاح — محمد بن أبى بكر الرازى

١٩ — المعجم الفلسفى — د/ جميل صليبا.

٢٠ — المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية .

٢١ — الموسوعة العربية الميسرة — إشراف محمد شفيق غربال.

٢٢ — الموسوعة الفلسفية — رئيس التحرير د/معن زيادة.

٢٣ — الموسوعة الفلسفية المختصرة — نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل.

٢٤ — نظرات فى الفلسفة الحديثة — د/ أحمد عبده حموده الجمل.